دماء في نهر الفرات

Blood in the Euphrates

رواية

أنور أحمد

ماستر

دماء في نهر الفرات

رواية..

أنور أحمد

تصميم الغلاف
بيشوى ظريف

الجمع والإخراج
التجهيزات الفنية بدار ماستر للنشر

رقم الإيداع/ ٢٠٢٠/١٦٠٨٦م

ISBN: 978-977-85768-1-8

13.5×19.5 CM

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

ماســـتر ©

٢٠٢١م

Email: master.publisher@hotmail.com
Facebook: facebook.com/Master.PH
Smashwords: smashwords.com/master.ph
Tel & Whatsapp/ 0128 730 3637

إهـــــــداء

إلى كل قلبٍ نبض بالحب، إلى كل نفس حر، وصوت حق، إلى كل عالم الإنسانية بلا لون ولا صفة أو عرق..
إلى من بعثت أنفاسها لتزرع بذور العشق في أرض خصابها الاشتياق.

خمسون شمعة قطفت..
أرواحها من أجسادها سُلبت..
لا ذنب لها غير أنها مع المجرم اختلفت.

دفنت وعن جيفة الحيوان استترت.
مفترس وحشي بمخالبه القذرة.

دماؤها في نهر الفرات جرت..
خمسون جورية مُزقت أوراقها.
بثت في السماء ومن الجور استصرخت.
فلتشهد السماء..
لتبكِ الأرض على إنسانية انعدمت.

لا ذنب لها غير أنها مع المجرم اختلفت.

(١)

حياة من تحت الأنقاض

صوت المدافع وأزيز الرصاص بعثر السكون، سُقيت الأرض بالدماء.. ورائحة الموت تخنق الأنفاس، أشلاء تقاسمت المكان، دور تبكي هجران ساكنيها، محارم بددها الجور، زهور خطفت ابتسامتها وسُلبت حريتها، جمالها مزق في الطرقات.

اعتدى على عذريتها مجرم تلبس بزي الديانات، ملامحه تخلو من الإنسانية، فظ غليظ، أنفاسه كالجيفة العفنة تقاسم وجه شياطينه، تغطي ملامحه ذقن طويلة مجعدة نظراته حادة، عيونه سوداء كاسوداد قلبه، يردد بصوت مخيف شعارات سمعتها من قبل من أهل الإسلام - ولا أظنه منهم - لا يعنيه صراخ النساء ولا بكاء الأطفال صرخ منادي جلاوزته «اجمعوا النساء داخل هذا المنزل»، وقد كان منزل جارتنا «أم غادة»، «واجعلوا الرجال عند هذا السور صفاً واحداً» وبدأ ينادي «يا كفرة يا حيوانات يا ملاعين يا أبناء الزواني تفوا عليكم... اليوم سوف نطهر الأرض منكم ونقطع نسلكم للعن أبو اللي خلفكم ، يا شباب خلوهم عند الجدار ورؤوسهم للأرض»...

«أين المصور؟ خلوا يجي خمسة منكم يجهزوا سكاكينهم لقطع رؤوس رجالهم والأطفال يرمون بالرصاص وخسارة فيهم الرصاص أبناء الحرام»....

كنت أنظر من نافذة البيت الذي سُجنَّا فيه وأتفقد أخي وخطيبي من بين الرجال المقيدين على الجدار، بعدما سمعت نباح ذلك الشيطان يحدث جلاوزته بطرق قتلهم لحظات والدماء تنهمر من تحت أجساد رجالنا ورؤوسهم تتدحرج في كل مكان، المنظركان مريعاً، لم، أتمالك نفسي من هول المنظر سقطت مغمياً عليَّ، تحلقت حولى النساء محاولات إفاقتي، بعدما تمالكت أنفاسي أحمل جسدي الذي فقد الإحساس من بشاعة المنظر، ذهبت من جديد أسترق النظر أتفقد أخي وخطيبي من بين الجثث التي تناثرت أسفل الجدارلم أجدهم ، انتابني شعور بالأمل لعلهما حيان ولكن كيف؟ وهذا الملعون أمر خنازيره أن يقتلوا الجميع بلا رحمة، ضممت رأسي بين ركبتيَّ فأنا لم أعد أتحمل التفكير، وصورة الجثث تكاد تسلبني عقلي، بكاء النساء وعويلهن يجعل الموت مطلبي للخلاص من كل هذا العذاب، لم نستوعب ما حصل... ولماذا حصل؟... وما جرمنا؟... ولصالح من؟... ومن يطلب ذبحنا كالخراف؟... تساؤلات شلت عقولنا لم نستطع أن نجد لها إجابة، أصبحنا نعزي بعضنا ونخفف ثقل الحزن الذي أوجعنا، بعض النساء لم تكن عندهن المقدرة على تحمل ما جرى سقطن جثثاً هامدة من غير حراك، وبعض الفتيات أصبحن يلطمن وجوههن ويضربن رؤوسهن في الجدار طالبات الخلاص من هول المصاب بالموت.. صدقوني كان الموت مطلب الجميع، كنا نتمنى أن نلحق رجالنا ونموت معهم ولم نستطع تحمل كل هذا العذاب، متنا ألف مرة ونحن ننظر...

تساقط شبابنا ورجال يرفسون جثثهم بأرجلهم ويقفون على رؤوسهم المقطوعة يتقاذفونها كالكرة، وذلك المجرم ممسك برأس رجل بلغ من العمر سبعين سنة بعد ما فصل الرأس عن الجسد وينادي: «اليوم يوم الملحمة، اليوم يوم الفتح، اليوم طهرنا الأرض من الأرجاس وهذه رؤوسهم جززناها».

أصبحوا بعد يرددون هتافات بدت معروفة لديَّ مسبقاً ولكن لماذا يرددونها؟... وما يربطهم بها؟... هل هذه الجماعة تنتسب إلى الإسلام؟... هل نحن ضحية لتطهير عرقي؟... أم هؤلاء مرتزقة تحركهم لعبة السياسة؟... هل هؤلاء المتوحشون أتوا لقتلنا فقط؟... ما هي أهدافهم؟؟... تساؤلات و تساؤلات ولا إجابة عندي.

كل شيء ميهم كأسوار الليل وعتمة المكان وأنا في عراك مع التفكير، أفزعني صوت رفس الباب فقد جاءت الشياطين...

- يلَّا إنتِ وياها قفوا.. خلصي يا حيوانة أقفي يلَّا بلا بكي لأضربك على وجهك .

- انتوا ما تخافون الله؟ ما عندكم رحمة ولا ضمير؟

- تسكتين لألحقك بزوجك؟

دار هذا الجدال بين إحدى النساء و أحد المجرمين، جعلوا يصنفوننا مثل قطيع الخراف حسب العمر والشكل.

نادى فيهم قائدهم:

- يا رجال كل واحد يأخذ نصيبه، اختاروا بوريكم بس خل واحد منكم يختار قبلي أقتله مكانه...

علت صيحاتهم...

- لا يا أبا قتادة من يسبقك؟ أنت الأمير.

لعد يا لله بنات كل وحدة تكشف عن ساقها والي ما تطيع أخليها تعض الأرض من الضرب بيها، أنتن اليوم جوارينا وما عندكن مفرولا تخلوني اضوج عليكن.

إحدى النساء لم تعد تتحمل هذا الذل، صرخت «روح حيوان ابن الكلب يعني شنو بتسوي أكثر من اللي سويته؟ الله لا يوفقك.. الله ياخذك أنت شنو؟ مابيك ذرة رجولة واقف تتمرجل على نسوان؟!!»

- يا ول هذا الكلام لي...

- لعد المن في خنزير غيرك هنا؟!...

احمرت عيناه.. بدأت تقاسيم وجهه يعلوها الغضب، ملامحه الإجرامية المخيفة والندبة التي بوجهه من أثر جرح سكين كان شكله مخيفاً، صرخ: «جيبوها الكافرة والله لأخليك تتمنين الموت وما تحصلينه..علقوها من إيديها وخلوا الباقي يشوفون عشان أي واحدة منهن تطاول على سيدها يكون هذا مصيرها، خليني أعطيك أول درس.. راح أجلدك وهذا بس للتسلية، بعدها تشوفين نار جهنم تحرقك.. اجلدوها حتى يتساقط لحم جلدها، وهي تصرخ ودموع النساء جفت،

الصدمة أفقدتهم الإحساس، ضحك بخبث لسه ما شوفتي شيء.

أصبح باقي النساء أصناماً، تيبسن كالأخشاب، لم أسمع حتى صوت أنفاسهن ولم يكن غريباً منهن ، الغريب أنهن لم يأخذهن الموت من هذا المنظر البشع.

تقاسمونا وكنت أنا من نصيب أحد مسؤليهم، أخذني إلى مقره.

اليوم الأول تركني حبيسة الغرفة وخرج، يبدو لم يكن في مزاج يرق له في هذا اليوم ليسلبني عفتي ويجردني من عذريتي وأنا بهذا الضعف والعمر كالكبش الذي اقتاده إلى المسلخ لا يقدر على الاعتراض أو التمرد وإلا كان موته أصعب مما يظن، لم أستطع النوم في تلك الليلة ومن يقدر على النوم أو يكون له القدرة على الأكل بعد ما صورنا به من مناظر، حيوانات الغابة لا تمارس مثل هذه الجرائم، لم يكن فيلماً من أفلام هوليوود ولم يكن من قصص الجان أو الآنمي.. كان واقع في عمرنا الحديث لم يكن في زمن التتار.

جلست شادة على شعري أفكر بالخلاص تارة، وتارة أسترجع ذكرياتنا، قبل أربع وعشرين ساعة فقط كنا نعيش في أمان منعزلين عن العالم الخارجي، تحيطنا الجبال التي كانت ترسم جمال الطبيعة في الربيع وادي كرسي يتوج بالأخضر متدرجاً كالسلم الموسيقي تفترش من أرضه وتتطاير كالفراشات، نرمي

بحمل الحياة بين أشجاره، حياة لا تكلف فيها بسيطة تجمعنا بعيداً عن الآخرين، وحين يحل الشتاء تحرسنا تلك الجبال تكسوها الثلوج تبدو كالملاك الذي يقف شامخ لحمايتنا من الغرباء تحتضن بيوتنا الصغيرة البسيطة لكنها تحمل الدفء والمحبة بداخلها وإن ضاقت أنفسنا ذهبنا إلى «الألش» - موقع مقدس لدى الطائفة الإزيدية يقع في منطقة جبلية شمال غرب مدينة الموصل العراقية - ذي القبة سداسية الأضلاع واغتسلنا من مائه العذب وتصفحنا كتاب «رش» - الكتاب الأسود وهذا معناه اللفظي، تعني باللغة الكردية أسود وهو أحد الكتابين المقدسين للديانة الإيزيدية - نتفرد في تعاليمنا عن الآخرين، مسالمين لا نتدخل في حياة العالم الخارجي عن عالمنا الصغير...

آه يا قلبي ماذا أقول لك؟ هل ما قلته هذيان من هول المصاب؟ أم واقع أريد أن أتذكر ماضيه لأخفف عنك وعني الوجع؟ وألملم جراحي وأنا في هذا التخبط في المشاعر بين ما أعيشة و الماضي الجميل...

فتح الباب بعنف لأقف فزعة وجلة تنتفض أطرافي صرخ بصوت يفتقد الحنان حتى وأنا الآن مثل الحمامة المذبوحة بين يديه، قلبه صخر أصم لا يحمل أي معنى للإنسانية.

نظر إليَّ بنظرات تملؤها الكبرياء والشركان يريد أن أنظر بعينه أنني صغيرة تحت سيطرته وأنه يقود حياتي حيث

يريد، أخفضت رأسي منكسرة وحقق ما يريد أن يراني منهزمة ضعيفة لاحول لي ولا قوة يصيرني دمية بين يديه ليرضي نفسه المريضة، رمى على وجهي فستان سهرة يجعلني عارية أكثر مما يسترني.

- باين بكرة دورك اغتسلي وجهزي حالك، أجيك لابسة الفستان ومضبطة حالك، سَمعتِ؟ ويا ويلك إذا أجي وانتِ موجاهزة.

خرج ضارباً الباب، تجمدت في مكاني كيف لحمامة تتزين لتزف لمذبحها؟ هل ماتت مشاعرهم؟!... ضربت رأسي بالجدار مراراً باحثة عن خلاص حتى أرهقني الألم والتعب والليل قد انتصف، أصبحت ملامحي جافة بلا روح، أتلمس بشرتي.. أصبحت قاسية مترية كل هذا والمجرم يطلب مني أن أستعد لتخالط جيفته جسدي، وماذا عن الفتاتين الآخريين؟ لقد نسيت أمرهما، وهل لي عقل أفكر فيه بما حل بهما وأنا بهذا الحال، فتاتين كالورود كانتا معي من نصيب هذا المجرم تقاسمونا بينهم كقطع أثاث بالية أو كالخراف؟ تباً لهم ماذا أجرموا بحقهما؟ فتاة في عمر الخامسة عشرة والأخرى ثمانية عشر عاماً، حينها وأنا في عراك من النقاش الداخلي سمعت صراخاً وآهات.. اضطرب قلبي لابد أن المجرم الآن يعتدي على فريسته إحدى الفتيات، حاولت أن أسترق السمع من خلف الباب لأتحقق مما يجري وماذا خلف هذا الصراخ سمعت حديثهم وهم في حديث من النشوة والاستهزاء: «هذه البنت

مثل الفرخ لا تفوتك»، تناوبوا على البنت المسكينة حتى قال أحدهم كافي شكلها ما عاد تتحمل، بعد لحظات وآخر ينادي...

- يا شباب البنت شكلها فطست ماتت بعد ما أخذنا ما نريد منها. احملوها وارموها بعيداً حتى لا يخيس المكان من ريحتها العفنة.

المسكينة ماتت، لم تتحمل الألم والنزيف، فقد كانت مجرد طفلة وقعت بين أيدي وحوش تناوبوا على افتراسها حتى لفظت روحها من جسدها ثم رموها بكل وحشية مثلما يتخلصون من النفايات.

رموها ولم يعنهم ذلك الجسد المتورم المفعم بالجراح، أي بشر هؤلاء المجرمين؟ وهل لديهم الإله؟ هل يملكون ضميراً؟... تباً ماذا أقول؟... هل مثل هؤلاء ينتمون للبشرية؟؟...

حل الصباح وأنا مستندة على باب الغرفة، يبدو أنني هُزمت هناك ولم أتحرك من مكاني، حملت نفسي بتثاقل، شربت كأس ماء فقط لأقدر على مقاومة الضعف وأفكر ماذا أفعل هذه الليلة؟ أيعقل أن أغتسل وأتزين ليرتمي على جسدي هذا المجرم؟ وبكل سهولة يريدني أن أستسلم له..

انتصف اليوم وأنا اقلب الفستان بين يدي تارة وأشد شعري تارة أخرى ماذا أعمل الآن؟... هل أكون ضحية أخرى لهذا المتوحش؟... أم هناك منقذ؟... يا الله خلصني من أيدي القتلة.. ارحم شدة ضعفي.

غابت الشمس لترقد تحت طيات السماء تبحث عن فرصة لتبدد عتمة الظلام، وازداد توتري ونبضات قلبي تتزايد وكأن قلبي أراد أن ينفجر، أمسكت الفستان مستسلمة، أمشي متثاقلة.. قدماي بالكاد قادرة على حملي.. ذهبت إلى الحمام لأغتسل وألبس الفستان خرجت بعد نصف ساعة كارهة لنفسي أردد: «لماذا لا تخرج روحي من جسدي فأرتاح»، جلست على طرف السرير بعد ساعة من جلوسي وانتظاري المميت مرتدية فستان موتي، فتح الباب طل بوجهه القبيح تعلوه ابتسامة مكر وحقارة، لحظات وتبدلت ملامحه.. غطى أنفه بيده مزدرياً وبدأ يصرخ:

- ما هذه الرائحة يا حيوانة؟

وأنا لم أحرك ساكناً.

اشمأز وقال:

- اقتربي.

وكلما اقتربت زادت الرائحة وزاد صراخه.

- ابتعدي لا بارك الله فيك يا ساقطة، جسدك ينبع نتانة المكان لا يحتمل، بكرة أجيك وأجيب وياي منظفات لجسمك، باين الماي وحده وياك ما يفيد يا عفنة عَكَّرتِ مزاجي وخربت ليلتي.

خرج ضارباً الباب بقوة ، حينها تنفست الصعداء ولأول

مرة منذ ماحلَّ بي من مصائب تعتلي شفتيَّ ابتسامة رضا وانتصار.

وأنا في الحمام جلست أفكر في حل يخرجني من هذه الورطة وقعت عيني على المرحاض راودتني فكرة ثم ترددت أَجُننتِ؟!! ماذا تريدين أن تفعلي؟!! وبعدما مضى الوقت أصابني الضجر.

لم أجد حلاً آخر، أرجعت نظري مرة أخرى للمرحاض ثم قلت ألوث جسدي بهذه القاذورات ولا يتلوث جسدي بجسد هذا الشيطان وتسلم روحي وعذريتي، لابد أن أقوم بالمستحيل في سبيل نجاتي فأنا أخوض معركة بين الموت والحياة وها أنا نجحت خطتي وخلصت من شر هذا الوقح ولكن ماذا عن اليوم القادم؟ ما هو مخرجي؟... ما هو الحل؟... الآن لأسعد بشعور النصر والخلاص فيما بعد أفكر بطريقة أخرى، أخرجها من مخالب هذا المفترس.

وسدت رأسي على باب الغرفة وكأنه مصدر الأمان والفاصل بيني وبين الشر.. أحسست بالتعب يجبرني أن أغمض عيني وأستسلم للنوم، نمت وكأني جثة هامدة.. انهرت أمام كل التعب الذي أصابني لم أحس بأي انزعاج.. جردني من خوفي شروق الشمس الذي بدد الظلام وحرارتها أيقظتني لأبدأ من جديد رحلة الترقب والحذر من القادم من خلف هذا الباب...

غسلت وجهي جلست بقرب النافذة، أدور بنظري حول الغرفة أفكر في حل يخلصني، الوقت يمضي ودقات قلبي تزداد تعرق جبيني ويزداد خوفي كلما اقتربت الشمس من الغروب، لم أجد حلاً للهروب من بطش الحيوان المفترس.. بدأت أتوتر أكثر.. حل الظلام.. قدماي تيبستا.. شفتاي أصابها الازرقاق من ضيق التنفس، هل أصرخ؟... لعل هناك من ينقذني... ولكن من؟... الرجال سقطوا بين ذبيح بسكين وقتيل بالرصاص.

استسلمت للباب وهو وحده يعطيني الأمان، سندت ظهري له أترقب وأسترق السمع.. انتصف الليل لم أسمع حراكاً واختفت الأصوات هل هذه إشارة مطمئنة؟ أم هو السكون الذي يسبق العاصفة؟

بدا الأمر غريباً، منذ ثلاثة أيام لم أفقد أصواتهم وحراكهم مما جعلني في حيرة من أمري، ربما رحلوا أم يحضرون لطرق الخلاص مما بقي منا؟ آه يا أخي.. أين أنت الآن؟... لم أجدك ضمن الجثث المترامية في الطرقات هل اكتفوا بأمرك أم استطعت الهروب قبل أن تصل إليك أيديهم؟ كم أتمنى وجودك.

سقط رأسي بين ركبتي يعتمر من الكم الهائل من الأفكار التي تراودني وبدأت دموعي تنهمر.. رفعت راية الاستسلام للقادم من خلف الباب، بدأ الفجر يعلن وصوله والضوء

يمزق عتمة الغرفة، لم يتسلل النوم هذه المرة ليسرقني من هذا الواقع، جلست أترقب.

أشرقت الشمس من جديد، لم يتغير شيء، بدا الحال كما هو الصمت وتوقف الحراك المجاور للغرفة، انتصف الليل، فجاءت ضوضاء وأصوات من كل مكان وكأن الأرض بدأت تضطرب، من أين كل هذه الأصوات؟ أنوار كثيرة تأتي من خلال زجاج النافذة، ذهبت قرب النافذة لأرى ماذا حدث لماذا كل هذه الأصوات؟.

هناك وجدت المنظر وكأنه جيش يستعد لحرب، سيارات ومدرعات ورجال يحملون السلاح، سيارات أخرى بدت كأنها سجن متنقل، ماذا يحدث؟ ما الذي يخططون له؟ كل هذه التجهيزات لأجل من؟... مستحيل كل هذه الأسلحة فقط لمجموعة من النساء وبعض الأطفال لا حول لهم ولا قوة، وأنا في حيرتي واقفة عند الباب مصدومة من هول المنظر.

انفتح الباب.. التفت بسرعة نحوه.. أسرني الخوف سقطت على الأرض لم أستطع الوقوف نظري متجمد نحو الباب، دخل اثنان كان أحدهما القائد الذي أصبحت له جارية وآخر لم أره من قبل يتبادلان الحديث بينهما...

قال قائدهم لسعدون:

- هل كل شيء جاهز؟

- نعم سيدي الرجال والسيارات كلها جاهزة وننتظر منكم

التعليمات.

لنتحرك، عفيه عليكم، البارحة انشغلنا في اجتماع مع القيادة وكنا نجمع معلومات ونرسم خطة للسيطرة على المناطق الجبلية فيها مجموعة من أهل المنطقة هربوا لسفوح الجبال، شوف سعدون بكرة الصباح لنتحرك ولأنك خوش ولد ويعتمد عليك هذه هديتي لك بكرة تاخذها وياك.

بدت ملامح الفرح تبدو على سعدون والابتسامة ترسم ملامحه، تعالت ضحكاتهم رفع نظره لي بكل استخفاف.

- شوفي ولج انتِ من بكرة ملك هذا البطل، من تعصين أمره ولا تشردين رصاصة براسك ونرميك للكلاب.. سمعتِ؟

لم أتفوه بكلمة تجمدت أطرافي أخفضت رأسي علامة على الرضوخ واستسلامي وطاعتي لأوامره، فقد أهداني لجنديه وكأنه أهداه حذاءاً بالياً لا يريد استخدامه من جديد ليفرح به من هو أقل منه رتبة.

في الوهلة الأولى من دخولهم استرجعت ما حدث لتلك الفتاة المسكينة، هل سوف يتناوبون علي كما فعلوا مع الفتاة حتى ألفظ أنفاسي بين أرجلهم؟ ولكنهم اختاروا أن أكون هدية من القائد لجنديه مقابل جهوده، يا ترى في أي عالم كل هذا يحصل؟... هل هذا سلوك البشر؟... لم أسمع عن وحشية أكثر مما أجده من هؤلاء الوحوش التي يعتلي ملامحهم الشر

والذين يخرج من عيونهم الحقد والانتقام، عشت ثلاثين سنة ولم أجد من الشر ما أنسب هؤلاء له ربما هم من نسل الشيطان لا دين أو قوم أنسبهم له رغم أن بعض ملامحهم بدت مألوفة لدي، وكأنهم من مناطق مجاورة لنا ولكن أرفض هذه الفرضية، لقد كنا نتشارك العمل والطعام وبيننا وبينهم جيرة وتعايش، نتشارك التجارة والمكان، نتبادل التزاور فيما بيننا، دخلوا بيوتنا ودخلنا بيوتهم.. لا.. هذا مستحيل يبدو أنني لم أعد أفكر بشكل سليم.. هذه الاستنتاجات غير منطقية ولا تلامس الواقع الذي عشته بقربهم كنت بعد تخرجي في كلية الطب أعمل في المستشفى وأعالج مرضاهم وأخفف آلامهم مستحيل أن تكون هذه الأجساد المنزوعة من المشاعر فاقدة الضمير أن تكون منهم، لعلي فيما بعد أجد الفرصة لأكتشف من هم؟... وماهي خلفيتهم؟... والى من ينتسبون؟.

الآن لا وقت لهذا، فحياتي وخلاصي من هذه النار الحارقة هذا كل همي، الآن اختلفت الأمور وتبدلت الحرباء بجلد آخر يبدو هذا الثعبان أقل وتيرة من الجلافة عن قائده، لاطفني وابتسم.. أمسك بخدي وقال:

- يا حلوة أنتِ ملكي.

وصار يتحسس جسدي وكأنه يعاين بضاعته بإتقان وتلذذ.. اقشعر بدني من ملامسته لي لكني لم أبد له امتعاضي.

نفثه الثعبان بأنفاسه في وجهي:

- يا حلوة شبيك هزيلة؟ شكلك ما تاكلين زين.. راح أرسلك

أكل.. كلي وتقوي.. بكرة ورانا سفر وطريق طويل.

مرر أصابع يده بين خصلات شعري:

- عيونك قتالة وجمالك ساحر، هذه الهدية المحترمة اليوم مشغول عنك بس من بكرة ابدأ وياك يا شطوره.

خرج تاركاً خلفه هماً يبدو أنه سوف يطول مع هؤلاء المسوخ من البشر، فقد تقاذفوني فيما بينهم، وإن كان هذا الثعبان ألطف في تعامله، ولكن كلّي يقين أن هذا التعامل مثل تعامل مربي الخراف.. يهتم بها وبغذائها لا خوفاً عليها بل لكي يتلذذ بأكلها، وهذا يلاطفني لأجل أن يستمتع من غير نفور مني وهو ينتشل لحمي ويريد مني أن أتقبله وآخذه بأحضاني كالعاشق من بعد غياب.. خيل له أن دور المتعاطف المحب قد انطلى عليَّ، ولم أعرف ما يصبو إليه، يمكرون ويمكر الله، سأعيش هذا الدور معه حتى أجد حيلة تخلصني وغداً لناظره قريب.

طرق الباب.. في العادة يفتح الباب من غير استئذان ولا هناك من له احترام ليستأذنوا للدخول عليه...

- يا بنت جايك بزاد وملابس من الأخ سعدون.

دخل وترك طبق الطعام على الأرض وكيساً بداخله ملابس، طبق الطعام كانت فيه أصناف متنوعة: فواكه، مشويات، خبز، مقبلات، كل ما لذ وطاب ومشروبات متنوعة ماء ولبن ومشروب غازي.. جلست أنظر للطبق والجوع يكاد يقتلني.. وكأن الطعام هذا أنزل لي من الجنة لإنقاذي، يومان لم أذق

الطعام.. أكلت كالمفجوعة التي لم ترى طعاماً مثل هذا من قبل، وقعت على الطعام مثل نسر وقع على فريسته، الجوع لا يرحم، لم أفكر بالامتناع عن الأكل رغم معرفتي المسبقة أنه لا خير يأتي من هؤلاء المجرمين، ولكني الآن لست في حال تسمح بمناقشة مقاصدهم، أريد أن ألبي حاجتي الإنسانية للطعام وبعدها يحلها ألف حلال، بعد انتهائي من الأكل أحسست بالارتياح والطاقة التي تجري في عروقي.. استرجعت نشاطي، استلقيت على السرير وأنظاري معلقة بسقف الغرفة وأفكر فيما بعد، لف رأسي مع المروحة التي تدور فوق رأسي، يا رب خلصني من فك الذئب.. أعرضت عيني محاولة أن أهرب من المكان.. أريد أن ينتشلني النوم من سجني ولو لبعض الوقت أسترد بها حريتي وأحس أنني إنسانة يحق لها أن تعيش كالبشر.. لا أن تساق مع قطيع الخراف ويبتاعني هذا أو يهديني ذاك.. أنقذني النوم من تعبي وخفف ألم رأسي من كثرة التفكير وحيرتي، أخذني النوم لثلاث ساعات لأرتاح.

وما أن أعلن الضوء بزوغ الفجر وإذا بأصوات تتعالى وحراك كثير، يبدوا أن هناك أمراً مضطرباً، صراخ ونداءات في أجهزة الإتصالات اللاسلكية، ماذا يحدث بالخارج؟... ذهبت إلى النافذة لعلي أكتشف ما يحدث هناك، السيارات في حالة الاستعداد، والمسلحون في ارتباك وحركتهم مضطربة، دقائق ويعلوا صوت مكبرات الصوت.. الكل يستعد للانسحاب طلعوا الأسرى للسيارات المصفحة، السيارات التي عليها

الرشاشات تطلع قدام.

قادوا النساء وهن مقيدات الأيدي إلى السيارات بالركل والشتم، وفي الأجواء صوت طائرات تحلق.. زادت حركتهم وذعرهم.. منذ أيام لم أرهم بهذا الخوف والارتباك.. يبدو أن أمراً حل بهم كسر شوكتهم، صرخ أحدهم...

- تداروا يا شباب غارة... غارة...

دوى بعدها صوت انفجار قوي، واشتعلت النيران في مكان الانفجار، يبدو أنه قد جاء المخلص، يا رب هل هذا جيش الدولة جاء ينقذنا من بطش القتلة؟ مضت ساعة وأنا أراقب أحداثاً دراماتيكية وتحول متسارع في حال المجرمين، قرع الباب التفت نحو الباب هذا سعدون مضطرب وملامحه فيها ذعر وخوف:

- يالَّلا بسرعة تعالي راح نمشي قبل ما يوصلوا.

أول مرة يخرج صوتي يسأل قلت له: «من هم؟»... «من الذي سيصل؟» ... لم يجب ما هو وقت السوالف... سحبني من يدي بقوة، وهو يسحبني خلفه بخطوات سريعة حتى وصلنا لسيارة بيك اب.. أركبني وأغلق الباب، قاد السيارة بسرعة جنونية أظهر فيها خوفه ومحاولته الهرب، نصف ساعة الآن وهو لم ينطق بكلمة عينه مسلَّطة على الطريق وبدأ العرق يتصبب من وجهه.. اقتربنا من الجبال صرخت ضاربة رأسي في زجاج مقدمة السيارة أخرجت لعاباً من فمي وتشنجت أطرافي.

أوقف السيارة ونزل مسرعاً لينقذني، فتح الباب، تمددت على الأرض متشنجة لحظات وتتساقط دماء على وجهي تحسست جسدي، هل هذا دمي؟ سمعت صوت رصاص، هل رماني؟ وأنا في خوفي والدماء على وجهي وإذا بجثة تضرب الأرض مستلقية بجانبي، كانت حيلتي للهرب أن أمثل أنني أصابتني نوبة صرع وعندما يتوقف أهرب الى الجبال نجحت فكرتي وقد توقف، ولكن يبدو أن هناك أمراً حدث خارج تخطيطي، جاء رجلان ملثمان بيدهم أسلحة رشاشة وعند اقترابهما أصبحت أصرخ... أصرخ... نادى أحدهما:

- اهدئي لا عليك.. أنتِ الآن في أمان، جاء نحوي قناصة من شباب المقاومة وجئنا نختبئ عند الجبال، ولقد خلصناك من هذا القذر.

لم أستوعب ما قاله، هل نجوت؟ هل استعدت حريتي؟ أم أنا في حلم؟ لم تغمرني الفرحة ردة فعلي لم تكن مناسبة لمثل هذا الحدث، لعلي لم أؤمن أنني بالفعل تخلصت من كربي، لم أصدق ما حصل، قرب مني الشاب الآخر كان نحيل القوام ذا شفتين رفيعتين وذقن صغير ووجنتين غائرتين، وكان شعره أشقر طويلاً وكل ما قرب أكثر ملامحه تتغير ويبدو في حالة من الصدمة وهو يدقق في وجهي ويتفحصني بعينيه وهو في هذه الحالة دمعت عيونه، لم أقدر على تفسير تصرفاته صرخ وهو يقترب مني.

- «كاترين».. «كاترين».. «كاترين» .

ضمني بقوة، عرفت صوته.. نعم عرفته.. هذا الصوت ليس غريباً عني.. أعرفه إنه أخي.. أخي.. أخي.. الحمدلله.. الحمدلله، بدت الحياة تعود، تعانقنا حتى سقطنا على الأرض،لقاء أخي كان مثل الماء الذي يرتوي منه شخص شارف على الموت من شدة عطشه.

- اه يا أخي.

- «كاترين» لنذهب سريعاً قبل أن يأتي أحدهم، وفي مقرنا نتبادل الحديث.. تعالي هنا.. ادخلي.. استريحي الآن.. هذا مكان نختبئ فيه في الجبال ونتسلل بين الأشجار لمقاومة المجرمين وتحرير أهلنا منهم.. اشربي الماء وارتاحي وبعدها أرجع للاطمئنان عليك ونتحدث فشوقي لك لا يوصف.

مضى النهار وحل الظلام وأنا مستلقية، أحسست بالأمان لوجود أخي بقربي فقد نشأت تحت رعايته، أبي توفي وأنا في الخامسة عشرة من عمري وأخي كان لي الأخ والصديق والأب.

اجتهدت وساعدني في تحقيق حلمي لدخول كلية الطب، لم يتزوج.. ضحى بحقوقه ورغباته لأجلنا وإحساسه بالمسؤولية تجاهنا أنا وأمي، ولقد فارقتنا أمي قبل سنتين، داهمها المرض بشكل متسارع حتى سلبها من بيننا.. كم أشتاق لوجودك كم أحتاج لحنانك وعطفك.. خذيني أمي بأحضانك.. وددت أن أكون بجوارك مستلقية وتلتقي أرواحنا وتختفي أجسادنا البالية.

أمي.. أحبك.

أمي.. خذيني بجوارك، بكيت.. انهرت.. أخيراً لم أسيطر على الصراخ بداخلي.. انتفض ليخرج من صدري.. انهمرت دموعي كالسيل لم تتوقف حتى هربت للنوم ولم أحس بنفسي، أشرقت الشمس وقد كان نومي عميقاً لإحساسي بالأمان، لم يكن المكان مريحاً ولكن قرب أخي هو الذي جعل المكان يبدوا لي جنة.. جاء أخي «زركار» وبيده صحن.

- تعالي يلَّه تعالي نفطر أكيد جعت.

- إي أخي.. الجوع ضاربني.

- وهذا كوب الشاي بالحليب وسكر زيادة مثلما تحبين.

تبسمت والفرح يملأ قلبي، أخي لم يفتك شيء، كل هذه التفاصيل اهتممت بها.

- أخي أريد أن أسألك كيف نجوت من المجرمين؟ ومن هؤلاء؟ وماذا يريدون منا؟.

- اهدئي.. لماذا كل هذه التساؤلات في وقت واحد؟ يبدو عندك صراع بداخلك من علامات الاستفهام، تناولي إفطارك وبعدها نشرب الشاي ونتحدث.

«زركار» انتهينا من الإفطار ارحني الآن وأجبني عما ينهش داخل رأسي.

- حسناً...

- «كاترين» سؤالك عن نجاتي فقد تدخلت العناية الإلهية فقد كنت خارج القرية لأنجز بعض الأعمال، تعطلت سيارتي.. وقتها كنت في شدة غضبي لتعطل السيارة والتعب الذي حل بي ولم أدرك أن تعطل السيارة كان سبباً لنجاتي، انتظرت أحد

المارة ليساعدني.. طال انتظاري بعدما حل الظلام وجدت أفواجاً من الناس تمشي في خط متواصل، أصبحت أتصفح الوجوه، بدا عليهم التعب والخوف وضعت يدي على رأسي.. بالله ماذا حدث؟ لماذا الناس يهربون؟ حينما صادفت بعض الأصدقاء وبينهم خطيبك أوقفتهم لأجد إجابة عما أرى من قاطرات بشرية، قالوا لي لقد اقتحم قريتنا جماعة مسلحة وعاثوا في المكان سلباً ونهباً وقتلاً، المكان كالجحيم لا يوصف، هؤلاء فقط من استطاعوا الهرب...

سألتهم: والى أين أنتم ذاهبون؟

- سوف نذهب للجبال للإنضمام لشباب المقاومة لمحاربة المجرمين وتخليص أهلنا منهم.

- إذاً سوف أذهب معكم، ولكن أريد أن أسأل هل بينكم من رأى أختي «كاترين»، «زاكي» أين خطيبتك؟ كيف ذهبت وتركتها خلفك؟ نظر إلى الأرض وهو منكسر وكله خجل من أن ينظر في عيني.

- بحثت عنها ولم أجدها، خفت أن أقتل فهربت مسرعاً.

- يا لك من جبان لا نخوة لك كيف تترك حبيبتك لتقع في أيدي المجرمين لتنجو بنفسك؟.

- «زركار» لا تلمني أنت لم ترى ماذا فعل الوحوش؟.

صفعته على وجهه وكدت أنفجر من الغيظ حتى هدئني الأصدقاء، وقال أحدهم: لنترك الخلاف، الوضع لا يسمح بذلك الخلاف نحتاج وحدتنا ولنجمع قوتنا لمحاربة الغزاة.

ذهبت معهم للجبال، أصبحنا نخطط ونبتكر طرق لنتخلص من الحثالة، ولأن هذه منطقتنا ونعرف طرقها فقد كنا نتسلل كل ليلة ونصطادهم، وفي أحد الأيام أعددنا كميناً لمجموعة من المسلحين وكان معنا «زاكي» وأبدى شجاعة في هذا الموقف قتلنا المسلحين واستشهد «زاكي» في هذه الحادثة.. أعتذر منك أختي لنقلي هذه الأخبار المحزنة لتزيد من أوجاعك.

- لا عليك لقد تبلدت مشاعري.. ما رأيته جعلني أموت ألف مرة، ومن هؤلاء المسلحون؟ كانوا يرددون عبارات مألوفة عند المسلمين.

- «كاترين» نعم هم ينسبون أنفسهم للمسلمين وأنهم يعدون خلافة المسلمين.

- «زركار» ماذا تقول؟ مسلمين؟! لقد عاشرنا المسلمين ولم نجدهم وحوشاً، هم أناس طيبون خيرون.

- لكن «كاترين» هم يدعون أنهم مسلمون.

- كيف من أكلوا معنا وشاركونا الحياة يغدرون بنا؟ هذا لا يصدق، هذا جنون أكاد أجن.. قل لي إن ما قلته مزحة سخيفة .. شعاراتهم ومبادئ دينهم لا تسمح بهذا.. صدقني.

أنت تقول لي أننا كنا مخدوعين بهم؟!! وكل ما عشناه في الماضي بجوارهم كان كذبة؟!! أقوالهم تخالف أفعالهم؟!!

- انتظري يا أختي.. لا تحكي على دينهم ولا المسلمين، هذه الجماعات لا دين لها، إرهابية تتبع أجندات تأمرها صدقيني،غضبك وإحساسك بالغدر من الذين كنا نتقاسم

معهم المعيشة، لكن هذا وجه آخر لحقيقة ما يجري، هذه المجموعات الإرهابية ما هي إلا بيادق تحركها أيدي اللاعبين على لوح الشطرنج.. ألم يخطر في بالك وأنتِ تصبين فيض غضبك على المسلمين وتتساءلين من أين؟... لم كل هذه التجهيزات التي قد تعجز دول عن توفيرها؟ ناهيك عن مجموعات من المرتزقة من أين لهم كل هذه الأموال والعتاد والأسلحة المتطورة؟... من مدهم بكل هذا؟... من سهل لهم التنقل وأعطاهم المعلومات الاستخباراتية؟... هؤلاء أدوات لعبة تخاطر في الخفاء، إنها لعبة كبيرة تتعدى حدودنا ونحن أحد ضحاياها.

- يا أخي وماذا يراد منها؟ وما يريدون من فائدة من نزع الأرواح والأسر والتنكيل بالناس وهدم بيوت الآمنين وتهجيرهم ؟

- عزيزتي كل هذا لبث الرعب في قلوب خصومهم ولا يعنيهم من مات طفلاً كان أو شيخاً كبيراً، هذه الجماعات وحركاتها فسرت بأوجه مختلفة كثيرة، منهم من قال إنها تستهدف الإسلام وتشويهه وكما يشاع إسلاموفوبيا، وهناك رأي آخر يقول أنها من صنع الاستخبارات الغربية افتعلوا كل هذا الدمار ليسرقوا خيرات المنطقة ورأي ثالث يجده صراعاً إقليمياً على النفوذ في المنطقة، ولقد وجدوا من يلعب هذا الدور بلا منازع الجماعات التكفيرية، وكل هذه الآراء مجتمعة صحيحة وواقعية وكل منهم يحرك الأوراق حسب ما تقتضيه مصلحته وجعلوا الإنسانية شعاراً في الإعلام كأداة ضغط

يحركون بها الشارع، الأمر أكبر من أن نوقفه بأيدينا الخاوية ولكن ندافع عن حقنا في الحياة.

«كاترين» لا تحملي الدين أخطاء لا علاقة له بها.. سوف أخبرك المكان هنا خطر عليك يجب أن أنقلك لمكان آخر أكثر أماناً.. ولقد رتبت طريقة نقلك مع أحد المقاومين الذي آمن عليك معه.

- أخي.. كيف تقرر من غير أن تخبرني؟ لماذا تريد أن نفترق من جديد؟ لماذا لا أبقى وأساعدكم وأشارككم مقاومة المجرمين؟

- الأمر أصعب مما تتخيلين.. وأنا أخاف عليك ولابد من ذهابك ولا تناقشيني في هذا الموضوع وبإمكانك أن تساعدي الناس حيث المكان الذي ستذهبين إليه، ارتاحي الآن، غداً صباحاً سيأتي من يأخذك إلى هناك.

- حسناً يا أخي كما تريد ولكن لا تقطع اتصالك بي لأطمئن عليك.

- لا عليك.. إن شاء الله نتخلص من المجرمين ونجتمع من جديد.

- إن شاء الله، حماك الله.

- أراك غداً، الآن سوف أذهب لألتحق بالشباب لدينا بعض الأعمال.

- اذهب يا أخي في حفظ الله.

يا الله خلصنا من هذه المحنة وانشر السلام بيننا، لأنام قليلاً غداً لا أعلم ماذا سوف ألقي غداً من مصاعب أرجو أن

يكون خيراً ولا يرجعني إلى الجحيم لأنام بسلام.

«كاترين» استيقظي.. حان وقت ذهابك جاء الأخ «محمد» ليأخذك إلى هناك.

- «محمد»؟ وهل تأمنني مع واحد من الذين غدروا بنا؟

- «كاترين».. هذا آمنه على نفسي.. لا تقلقي ستكونين بخير، قومي الرجل ينتظر في الخارج، الطريق طويل.

- حاضر كما تريد.

- السلام عليكم «محمد» هذه أختي وأنا أجعلها أمانة لديك.

- لا تقلق تفضلي أخت «كاترين» لننطلق مع السلامة.

- أخي في حفظ الله.

- أختي عند وصولك سيسلمك «محمد» جهاز موبايل ليسهل عليك التواصل معي.

- لوحت بيدي والسيارة تتحرك إلى حيث لا أعلم، وكل ما بعدت السيارة زاد خوفي، جلست والتفكير رجع ليشغلني بتساؤلاتي المحيرة وكيف أطمئن لوجودي مع شخص من أناس أكرههم لما فعلوه بنا؟ يبدو هذا مثل المشي إلى حفرة من نار.. أطبقت على أسناني ولم أنطق بكلمة.

نظرت إلى الجبال وعيوني تودعها.. تذكرت حينها عندما كانت تتساقط الثلوج عليها معلنة وصول الشتاء وترتدي زيها الأبيض شامخة مثل عاشق ينتظر محبوبته، برودة الأجواء كانت تبعث بالبهجة والمحبة وأعتاد في هذه الأوقات صديقاتي في الجامعة يزرنني لنجتمع عند الجبال ويسعدن برؤية

تساقط الثلوج، ولا يخلو لقائنا من نقاش وتراشق بالألقاب، كنت ألقب بالخضراء وذلك بسبب لون عيني، وكأن المرآة اختلفت لا تعكس حقيقة ملامحي.. أين تلك البنت الجميلة ذات الشعر الناعم والوجه القمري؟ أين ذاك البياض المسمى بالغيمة؟ الأنف الموصوف بالقلم.. يبدو كل هذا تبدد في رحلة الشتات ولا أجد من ملامحي غير سراب يذكرني باسمي

أتذكر ذلك الغداء مع صديقاتي ملتفين حلقة حول أسياخ اللحم المشوي والحطب الذي أكلت النار أجزاءه.

- كل الماديات تتعرض لتطور حتى تصل إلى الكمال ونحن البشر نخضع لهذا القانون كما قال «داروين» في نظرية التطور وهل هذا يعارض مسلماتك الدينية؟.. أخبريني يا «جمانة».

- لا يتنافى مع معتقداتي وذكر ذلك في القرآن الكريم المراحل التي خضع لها الإنسان لتكامله.

- إذاً لماذا هذا الشر والإجرام نجده في الحياة؟ أين الكمال الذي تتحدثين عنه؟... ومن المسؤول عن كل ذلك؟... أنتِ من الموحدين، خالقك نفسه مصدر للخير والشر هو الذي يخلق الشرور نعيش بتوازن لكل أمر مضاد، هناك نور وهناك ظلام، هذه سنن الحياة، عمق الإنسان يتوسد الخير والشر، أي طرف منهما يسود على الآخر ينتج عنه السلوك الذي يوصف به الشخص.

ومن ثم اشتد النقاش وذلك بسبب سؤال عابر، المسلمون

يدعون أنهم دين سلام ومحبة وإن سقطت عيونك على تاريخهم نجدهم يفتخرون بالقتل والغزو ونهب الثروات ولا أعلم سر الجاريات، كل شخص عندهم له نفوذ لديه عدد لا يحصى من الجاريات وكل هذا يبررونه بالفتوحات، لا أعلم من يحب ديناً يسلم له تحت وطأة السيف، هذا السؤال أشعل نار الغضب أكثر من نار الحطب، عكر صفو الأجواء قالت «منى» ووجها محمر منفوخ عابسة:

«كاترين» أنتِ تدلسين وتقرئين التاريخ بنظرة عدائية وكلامك يوضح ما بداخلك من عداوة ضد الإسلام، سقطات لسانك فضحت سريرتك الخبيثة.

- «منى» لماذا كل هذه الاتهامات؟ كان مجرد سؤال لا أقصد منه الإهانة، فقط لأنكن صديقاتي منذ أربع سنوات تجرأت بطرح السؤال عليكن لأنه سبّب لديَّ حيرة فقد رأيت فيك المحبة والصحبة الطيبة.. وما قرأته ولّد لديّ انطباعاً مخالفاً والآن أجدك انفعلتِ كثيراً وتناسيتِ صداقتنا، ولو تمكنت لقتلتِني هنا، رشقتني بكل التهم المعيبة وأنتِ في ضيافتي، وبين أهلي كيف آمن على نفسي إن كنت بينكم وهذا حدث وأنا في دياري ... منى الآن نحن في السنه الأخيرة من دراستنا للطب وعقولنا أصبحت أكثر تحليلاً للأمور ولا أجد ما تقولينه سليم ويمكن لأنني لم أتعرض لمصادرك لهذا المعتقد ولا أقدر أن أحكم عليه في هذا الوقت، وفي الأخير هذه معتقداتك ولا أعترض عليها.

وكأن الأمس الماضي يسدل ستاره عليَّ في هذه اللحظات وأنا أعيش تناقضاتهم، هؤلاء قوم منسلخون من إنسانيتهم، ومرحلة التطور البشري توقفت بهم في مرحلة الظلام.

أين خالقهم الذي يدعونه من كل هذه الشرور؟ أين هذا النور الذي يحارب الظلام؟.

- أخت «كاترين» ... أخت «كاترين».

- نعم آسفة.. شردت قليلاً.

- سوف يكون الطريق إلى المخيم طويلاً يستغرق عشر ساعات تقريباً إن شاء الله ولابد أن نتوقف للاستراحة وتناول الطعام إذا كان لك حاجة فقط أخبريني...

لم أجب على كلامه، بعد ساعتين من انطلاقنا رجع «محمد» محاولاً تمضية الطريق الطويل من غير ضجر...

- أخت «كاترين» سوف نتوقف بعد ساعتين للصلاة وتناول الغداء.

- حسناً.

حين توقفنا ذهب «محمد» للصلاة، إذ توقفنا عند إحدى الاستراحات في الطريق دعاني «محمد» لتناول الغداء، تناولنا بعد الاستعداد للانطلاق من جديد جاء «محمد» وهو حامل كوبين من الشاي أعطاني أحدهما وقال:

- هذا لك كما تحبين مثلما أخبرني «زركار»...

انطلقنا، هنا أحسست بالارتياح فارتخت ملامحي التي كانت متقطبة طول الطريق كارهة تواجدي مع «محمد» في هذا الطريق، الآن بعدما وجدت نفسي تنفست الصعداء واسترخيت، انطلقت أول كلماتي...

- أخ «محمد» هل يمكنني أن اسألك؟

- تفضلي أخت «كاترين» أخيراً قررتِ الحديث؟

- أخ «محمد» لماذا تقتلوننا باسم الدين والتقرب لله؟

- ماذا تقصدين بكلمة تقتلوننا؟... هل ترين أننا سبب ما حصل لكم؟

- نعم «محمد».

- كيف توصلتِ لهذا الاستنتاج؟

- الأشخاص الذين هاجمونا كانوا ينسبون أنفسهم إلى الإسلام.

- أخت «كاترين» لماذا تحملينا جرم مجموعة مجرمين يستغلون الدين لتنفيذ مخططاتهم والإسلام منهم براء؟... لماذا ينسب هذا العمل الوحشي إلى الإسلام؟... والإسلام دين السلام والمحبة.. هذا أمر خطر.

- لماذا لم يحمل العالم قتل مليون جزائري للمسيح، والحال هنا استعمار؟ ولم نسمع أحداً من الغرب حمل الدين اليهودي اغتصابهم فلسطين وقتل وتهجير أهلها!! لماذا الآن الأصوات تتعالى باتهام الدين الإسلامي بالإرهاب والتعصب؟ هذا أمر مخطط له ومسيس ولا أعتب عليهم ولكن عتبي عليك.. كيف لا يكون لديك المقدرة على التفريق بين المجرمين

والإسلام وأنتِ تعيشين بينهم؟...

الرسالات السماوية تأتي كالدستور ينظم حياة الناس وتنشر العدل والأمان بينهم، وكسر هذه القواعد والتهرب منها هذا حال البشر، لهذا أوجد الله العقاب للمتمردين على نظام السماء، سوف أخبرك بعضاً مما أعرفه عن سماحة الدين الإسلامي دين السلام والأمان، حارب سفك الدماء وقوَّم حياة الإنسان ففي القرآن مثلاً وفي الآية ٦١ من سورة الأنفال يقول تعالى: «وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ»

وفي الآية ٢٢ من سورة النور يقول تعالى: «وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ»... وهناك دعوة لنقاوة القلب من الأحقاد والعفو والصفح والتسامح في الدين الإسلامي يعني الإخاء وقبول الآخر أخ لنا في الإنسانية لذلك أحترم دينه ومعتقداته.. بذلك رسخ الإسلام مبدأ الإخاء الإنساني ونبذ التطرف والعنف.

والسلام تحية الإسلام التي أمر الرسول بها لإفشاء السلام بينهم وتجلب المودة في أوساطهم قال الرسول الكريم صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم» وهذا حديث ورد في صحيح مسلم.

وقال «أفضل الإيمان الصبر والسماحة» وهذا حديث رواه البخاري.

وفي كتاب المسيح السلام هو ما يأمل المحبة بين الناس فقد ذكر «أما ثمرة الروح فهو: محبة، فرح، سلام، طول أناة ، لطف، صلاح، إيمان، وداعة، تعفف» وهذا ورد في الكتاب المقدس.

وقد جاء أيضاً في الكتاب المقدس في إنجيل متى: «طوبى للرحماء لأنهم يرحمون»..

وذكر في إنجيل «لوقا»: «قبل كل شيء لتكن صحبتكم بعضكم لبعض شديدة لأن المحبة تستر كثرة من الخطايا»[٩].

وقد جاء في الوصايا عن موسى عليه وعلى نبينا ألف الصلاة والسلام «كفوا عن الإساءة تعلموا الإحسان، التمسوا الإنصاف» وجاء هذا في الوصايا العشر لبني إسرائيل.

وهناك جملة في التوراة لا تغيب عن ذاكرتي قرأتها في أحد الكتب مفادها «نور العادلين يمنح الفرح، ومصباح الأشرار سينطفئ».

- أي تسامح تتكلم عنه؟ أنت لم تعش ما عشته من عذاب هل هناك جرم أكبر من قطع الرؤوس مقابل أعيننا؟. أنت تتحدث بمثالية.

- لا يا «كاترين»، أنا أراعي ألمك وحزنك ولم أتجاهل معاناتك، أردت أن أوضح لك حقائق الأمور.. ألم تلاحظي أنني هنا لمساعدتك ولا يوجد ما يربطني بك، ما يدفعني لدعم

المقاومين ومساعدتك ديني وإنسانيتي.

وهنا يا «كاترين» اتضح لك أن الديانات السماوية لا تحمل إلا الخير والمحبة، وما تجدينه من تصرفات وهدر للدماء وسلب ونهب ودمار ليس من الدين في شيء، هؤلاء تلبسوا لباس الدين لتحقيق أهدافهم وخداع البسطاء من الناس واستدراج الشباب المندفع من غير أن يحقق في حقيقة الأمور.

الأديان يا «كاترين» بريئة من دم الأبرياء كبراءة الذئب من دم يوسف، أنتِ محملة بأثقال مما صادفتِ من بشاعة وجرم جعلك لا تنفين نظرتك وتعيشين الحقد والكره وتصدرين الأحكام ضد الدين، لكن أياماً وسوف تتضح لك الصورة وتغيرين حكمك الظالم لنا، ولا أحملك الذنب أراعي الظروف التي تعيشينها...

- يبدو أن غضبي وما عشته من أحداث حملني على الحكم الخطأ وكره الدين وسوء تقديري لحقيقة الأمور فلا تلمني، ليس هيناً ما عشته من ألم.

بدا «محمد» منزعجاً من كلامي ولكنه متفهم وأعطاني العذر.

- «كاترين» قربنا على الوصول سوف أبقيك يومين في مخيم بمدخل البصرة يقال له الخمسة ميل ريثما أرتب لك مكاناً يليق بك.

- حسناً، أخ «محمد» أشكرك لتفهمك وأعتذر عما بدر مني بالمناسبة اسم هذا المخيم غريب.

نعم غريب نوعاً ما سُمي بهذا الاسم لأنه يبعد عن مركز

المدينة خمسة أميال، لا تشغلي نفسك باسمه، الأهم أن تجدي الراحة والأمان داخله.

حل الصمت من جديد صرت أترقب الطريق مررنا ببساتين وكانت أشجار النخيل تجمل الطريق، كان «محمد» شاب خلوق مهذباً طويل القامة مفتول العضلات تجمله عيونه العسلية وابتسامته الجميلة، أشعرني لطفه وتعامله الطيب بقصر الطريق، وصلنا إلى المخيمات التي كانت معدة للمهجرين عبارة عن سوق يبدو أنه كان معداً من قبل لأمر آخر والأحداث جعلتهم يستخدمونه لتسكين المهجرين، كانت بوابته المرتفعة تقترب من خمسة أمتار عن الأرض، تشكل ضلعين متماسكين وكأنها توحي بالاحتضان والترحيب بالقادمين، أما مبانيه المتراصة كحجر الدومينو تغطيها ألواح صُنعت من الشينكو الحديد لونتها السماء بلونها فباتت زرقاء تبعث على الاطمئنان.

المكان مكتظ، أودعني «محمد» هناك وتحدث مع أحدهم ولقد أوصاه بي ولم يذهب حتى اطمأن عليَّ وعلى مكان مبيتي.

- أخت «كاترين» هذا موبايل خاص لك ولقد حفظت رقمي ورقم «زركار» به.. إن احتجتِ أمراً ما اتصلي بي.. يومان وسوف أعود لك لأنقلك إلى مكان آخر ولا تنسين أن تتصلي بأخيك لتطمئنيه عليك.

في كل مكان نساء لا تعهد في ملامحهن علامات الأنوثة فقد سرقتها منهم حرارة المكان وقساوة الظروف، والرجال أجسادهم منحنية خطواتهم متثاقلة، أدقق النظر فيهم لم أجدهم طاعنين في السن ولكون هذا أثار الكبر بدوا كالنخل الذي أصابه سوس النخل تجده واقفاً بشموخ واخضرار لم يشكُ الضر لكن داخله مفعم بالجراح، أحنى ظهورهم ثقل الهم والعوز وذل السؤال، كانوا أهل عز وكرامة آمنين في منازلهم مكتفين بقوت يومهم، والآن مزقتهم الأقدار بلا ذنب جنوه.

تباً لحياة نطرق أبوابها فاقدين الحرية والكرامة، المنظر محزن، أنساني مصابي، جعلني أراقب ملامح الجميع وأتابع آهاتهم، لكل شخص هنا قصة مبكية وأحداث موجعة.. يا الله خلصهم من أوجاعهم وأرجع لهم عزتهم فلا ذنب لهم غير ولادتهم في أرض مضطربة مع صدق الأخ «محمد» بما قاله لا علاقة للدين بهذه الأحداث، ما هي إلا خبث السياسة وعملاء الظلام.أين الإنسانية من كل هذا لترشدهم الصواب. ألم يتعرفوا على الحب؟... أم أن قلوبهم اجتثت من أراضيهم وبدت صدورهم تحمل الصخر مكانها... لابد أن هناك وجهاً آخر لكل هذه الصور السوداء، سأكتشف الوجه الآخر وهذا سيساعدني على البقاء.. أما الآن فسأتصل على أخي «زركار» لأطمئنه عليَّ.

- ألو ألو- أخي كيف حالك كيف الأمور تجري عندك؟

- لا تخافي الأمور بخير وإخوتنا في المقاومة أمدونا بالسلاح والعتاد ولم نعد وحيدين في مقاومة المجرمين.

- وماذا عنك؟ كيف الأمور تجري معك؟

- الحمد لله الأخ «محمد» كان لطيفاً معي مهتماً وحريصاً أودعني عند مخيمات اللاجئين، وغداً سوف يأتي ليصطحبني لمكان أفضل.

- الحمد لله، حفظك الله أختي.. الآن لابد أن أستأذنك لا أستطيع الإطالة في المكالمة وهذا إجراء أمني.

- حفظك الله أخي مع السلامة.

من مخاض الحياة يُولد الأمل

(٢)

الإنسانية نبض الحياة

أصبحت أجري خلف ضوء الشمس خوفاً من عتمة الليل وفقدان الأمل بوجود وجه آخر للحياة، العبء الذي يمزق الظلام ويكتب وحدة الإنسانية لنغير أدوار ممثلي الإجرام وسفك الدماء ونجعل مسرح الحياة يجسد الابتسامة المفقودة، ويرفع الأثقال من على أجساد كسرت قوتها الظروف، لن يلفظ العالم روح السلام بعد وإن تصدع جسده بجراح الحروب وظلم القوى الغاشمة والمستعمر النتن، هناك صوت حبيس نفق الحنجرة سيأتي يوم يتحرر صارخاً مطالباً بفك قيود الدين لتحرير الإنسانية من العبودية.. تبت يد المعتدي والمحتل لتحترق أجساد تجار البشر لتخمد العدالة أنفاس الشر التي سفكت دماء الأبرياء سلاح الموت ليصنعوا من أجسادهم أبراج الغطرسة وسرقة مقدراتهم طرزوا ملابسهم بخيوط نسجت من دموع الأيتام وصراخ ألم الفاقد.

يا رب.. متى تنتهي حفلة الرقص على الجنائز؟ متى يقف قطار الأحزان؟ نحروا الطفولة في مهدها.. أصبح مهاد الطفل كفنه.. أصبحت لا أتحمل هذه الهزات من أثر الزلزال الذي جعل الأرض تضطرب وتلفظ أرواحاً اعتلوا ظهرها ليهدؤوا روعها إكسير الحب ويسكن غضبها، بدت الأرض لا تحتمل كل هذا الجور يصنع على أرضها...

آه.. آه.. زفير صدري آهات وكلمات عيوني دموع الأسى لأذهب للنوم أهرب من هذه الصور الموجوعة، غداً سيأتي

«محمد» كما وعدني ليأخذني من هنا.

أشرقت الشمس، يا الله اجعله يوماً جديداً من غير ألم... أوه جهاز الموبايل يرن يبدو أنه «محمد».

- ألو.. ألو.. هلا أستاذ «محمد» صباح الخير.

- أهلا «كاترين» كيف كان يومك؟

- الحمد لله.. أنا مستعدة للذهاب متى سوف تأتي؟

- «كاترين» أنا بالفعل بالقرب من بوابة المخيم إن كنت مستعدة أنا بانتظارك لقد رتبت كل الإجراءات لأخذك من المخيم.

- إذاً عشر دقائق وسوف أكون عندك... السلام عليكم «محمد».

- وعليكم السلام «كاترين».

- يبدو يومك مشرقاً هل هذا فرح الانتقال؟ أم بدأ الأمل ينمو بداخلك من جديد؟

- «محمد» اليومان الماضيان كنت أرسم كل الصور التي تجعلني أتمسك بالأمل وإن لم افعل ذلك لكنت الآن جثة متعفنة وأكبر تكريم لي أن وجدت أحداً يستر عورتي في التراب وتضمني الأرض بعد أن قتلني ظلماً من عليها.. لا عليك «محمد» دعنا نذهب.

- إذاً لنذهب.. الأمل يصنعه الحب لأخبرك إلى أين نحن متوجهان.. لقد أخبرت أختي عنك وعن الظروف التي حلت بك وقد رحبت بك ضيفة في شقتها وسلمتني مفتاح الشقة

لتكون سكناً يليق بك وتعتذر من عدم قدرتها على استقبالك والترحيب بك لأنها ذهبت لرحلة عمل سوف تغيب لمدة ستة شهور.

- أشكرك «محمد» لقد أتعبتك وتسببت لك بإحراج.

- لا عليك هذا من دواعي سروري وأشكر الظروف التي جعلتني قادراً على تقديم المساعدة لك.. قريباً سوف نصل لتنعمي بالراحة، وقد وفرت لك كل ما تحتاجين إليه من طعام وإن احتجتِ لشيء آخر فقط اتصلي عليَّ وسوف أكون بقربك.

- لقد وصلنا.

- تفضلي هذا الباب، نعم هنا يمكنك الدخول هذه غرفة النوم وهناك المطبخ وعليك اكتشاف المتبقي من تفاصيل الشقة، المكان تحت تصرفك.

- «كاترين» أستودعك الله.

- في حفظ الله «محمد» أراك قريباً.

لا تقلل من شأن ما تقدمه..
رُب ابتسامة تصنع في قلوب الآخرين الكثير..
لا يذهب الخير الذي تقدمه سُدي..
بل تدور عجلة الزمن ليصل ذلك الخير عند بابك.

(٣)

نحو المجهول

أنا هنا ليس لهذا الدور الهزيل، لم يكن دوري أن أفتش خلف كل ابتسامة صفراء أو وجه عبوس، لا أريد أن أضيع وقتاً في تفسير كل كلمة تقال أو لماذا تقال.. ماذا سوف أجني من كل هذا غير الخيبات؟ إن اجتهدت في إزاحة الأقنعة التي تختبئ خلفها وجوه مختلفة قد تكون تخبئ الآلام والأحقاد وقد تكون تختبئ خلف الابتسامة بحزن وصدمات للعيش من غير البحث في بواطن الأمور للبحث عن السلام بداخلنا ونصنع الأمل في مجتمعنا، مللت هذا الدور الهزلي.

لأتصل على عميد الجامعة وأخبره عن موعد رحلتي ووقت وصولي إلى هناك.

- ألو.. ألو.. كيف حالك دكتور «عبد الجبار»؟

- بخير.. تفضل.. من المتحدث؟

- أنا الدكتور «فارس».. أتصل بك لأخبرك أنني أنهيت جميع الإجراءات وموعد رحلتي غداً الساعة العاشرة صباحاً سوف أكون قد وصلت إن شاء الله.

- أهلا وسهلاً.. عيني تشرفنا سوف أكون بانتظارك راح أرسل لك مندوب الجامعة لاستقبالك وتوصيلك إلى الفندق وبعد أن ترتاح سيكون قد رجع لأخذك من الفندق في تمام الساعة الثالثة عصراً ليوصلك إلى الجامعة موعد اجتماعنا... توصل بالسلامة.

- شكراً دكتور «عبد الجبار» يسعدني التعاون معك.

- إلى اللقاء.

لأجهز حقيبة سفري، رحلة إلى المجهول خلف هذه الحدود، لا أعلم بماذا سألتقي وما هو مصيري.. لكنها خطوات طالما أردت الإقدام عليها.. لابد أن أغير رتابة الحياة وأنجز ما يحقق الأثر للبشرية.

آه يا أمي.. كم سأشتاق لك؟ ولشروق شمسك كل صباح لتعذريني عن تغيبي عنك حينما تعلمين مقصدي، يا جنة الأرض لا تحرميني من دعائك ليسدد الله خطاي وأحقق ما أصبو إليه.

******

رحلة رقم DF35 على جميع الركاب التوجه إلى بوابة رقم ١١ والاستعداد للسفر.

الآن سوف أعبر هذا الممر للطائرة وأبحث عن مقصدي بحيث لا ألتفت للخلف، هذه الخطوات ستجعلني متربصاً لكل فرصة نحو تحقيق النجاح، ليكن هذا المقعد بالطائرة أول محطات الانتظار.

أعزائي الركاب نرجو ربط الأحزمة والاستعداد للهبوط، سوف نهبط بعد خمس عشرة دقيقة، لأنظر إذا لسماء هذه الأرض قبل هبوط الطائرة.. يا لجمال هذا المنظر، لقد تزينت الأرض بوشاح أخضر طرز بسعف النخيل، رسمت مليون غرزة في هذا الوشاح كلمة ترحيب وتعبير عن أصالة هذه

الأرض...

الحمد لله وصلت بالسلامة وهذه أولى الخطوات على أرض هذا البلد الذي لا أعلم عنه الكثير...

- أهلا وسهلاً بك في بلدك الثاني..هل أعطيتني جواز سفرك لو سمحت؟
- نعم تفضل.
- هذه أول زيارة لك؟
- نعم.. أول زيارة.
- ما سبب مجيئك إلى هنا؟ هل هي رحلة سياحية أم عمل؟
- عمل أستاذي الكريم.. جئت هنا بتنسيق مع الجامعة.
- أهلا وسهلاً بك.. تفضل.. وأعتذر عن كل هذا التأخير.

أول حوار يدور بيني وبين أحد موظفي الجوازات في المطار، أنهيت إجراءات المطار لأبحث عن حقيبتي في سير الأمتعة وأنطلق، لابد أن مندوب الجامعة قد وصل.

عند بوابة الخروج تجمع الناس لاستقبال أحبائهم وأقربائهم ومن بينهم وجدت أحد الأشخاص يرفع ورقة كتب عليها اسمي.

نعم هذا لابد أنه مندوب الجامعة ليوصلني الى الفندق.

- السلام عليكم.
- وعليكم السلام.
- أنا الدكتور «فارس».

- هلا وميت هلا.. أعطني حقيبتك لأحملها عنك.

- ليس هناك حاجة لذلك.. لا بأس أنا قادر على حملها شكرا لك.

- إذا لنذهب.

خرجت من المطار وقد استقبلني عند بوابة المطار رمز للجمال والشموخ، كان مجسماً من إبداع «محمد غني حكمت» جعل من النخيل رمزاً للمرأة في الشموخ والعطاء، تمثل في نساء البصرة كما في نخيلها.

كم كان هذا الرمز محل اهتمام عندي لأنه ولَّد لديَّ شعوراً بنقاط الإرتباط، فالنخلة رمز للعطاء في وطني ولقد تجسد هذا المعنى هنا.

قضيت يومي الأول داخل الفندق بين غرفتي وفناء الفندق محاولاً التأقلم مع المكان، لم أعرف أحداً في بلد المليون نخلة ولم يربطني بالمكان زيارة سابقة، أتمنى في هذه اللحظة أن يحل الليل ويسدل برقعه على وجهي لأستر ضعفي عن عيون الناس، كثيراً ما كان الليل ملاذ الهاربين من متاعب الحياة يجدون في ظلمته ستاراً وفي سكونه استقراراً .

ماذا جرى؟ لماذا تجلد نفسك بهذه القسوة؟ ألم تكن هذه أمنيتك؟ ألم يكن هذا خيارك، أم توقعت أن الأمر بهذه البساطة حينما أردت أن تصنع النجاح لنفسك وأن تضع بصماتك على صفحات الحياة؟ فلابد أن تعلم أن هناك ثمناً لابد أن تدفعه ولابد أن تقاوم هوان نفسك وتقويه بالنظر لهدفك، لاتكن مثل غصن شجرة تتلاعب بك الرياح.

نعم لم يحن بعد رمي القماش الأبيض ولن يكون أحد خياراتي، سأنتفض ولن أتراجع.
أمي سأخلد للنوم تحرسني دعواتك.

وعندما استيقظت أحسست بالارتياح، الناس هنا طيبون تعاملهم لطيف وكلماتهم الترحيبية تراقص المشاعر، وتجعلك ترسم على وجهك ابتسامة رضا تفضل عيني حباب تتدلل وصار..

أول يوم لي هنا كان مبشراً بالخير، كان لقائي بعميد الجامعة ناجح ومشجع بدا متفهماً وتحمس لإنجاح العمل، دكتور «عبد الجبار» رجل بدا عليه الوقار.. شعراته بدت كالوشاح الفضي يغطي رأسه، ذو نظارات عدساتها سميكة وجسم ممتلئ بدت لغته الإنجليزية جيدة يبدو أنه أحد المغتربين، أخبرني بأني اليوم سألتقي مع الفريق المشارك في البحث.

راجعت عمادة الجامعة لمناقشة التنسيق معهم لتعاونهم في البحوث التي جئت من أجلها ولقد أرسلوني مع أحد الموظفين لمختبر النباتات الطبية الذي كان مجهزاً تقريباً بأفضل التجهيزات ويحتوي على ما أريد من الأجهزة التي تساعدني على أداء عملي بشكل جيد، تسلمت ورقة الإذن بالدخول للمختبر واستخدام أجهزته ولقد نصحني عميد الجامعة أن تكون أحد أعضاء فريق البحث دكتورة لديهم تشاطرني الاهتمام ولها بحوث متعددة، وقبلت اقتراحه لأني

أجهل من هو الأفضل لأختار، وكان العميد متحمساً للبحث لذلك اختار لي أفضل تلامذته لديهم إنجازات رائعة سابقاً لإنجاح البحث والخروج بنتائج مفرحة.

******

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

- وعليكم السلام.

- أنا الدكتور «فارس» باحث ومهتم بعلم النباتات الطبية أتيت هنا بالأمس ويؤسفني أنني لم ألتقِ بكم، لقد وجهني عميد الجامعة إلى هذا المختبر ورشحكم لتكونوا أحد أعضاء فريق البحوث التي سوف أقيمها معكم.

- أهلا وسهلاً دكتور... أنا «عبير» ماجستير في علم السموم النباتية يسعدني أن أكون ضمن فريق البحث معكم.

- وأنا كذلك.. أنا الدكتورة «هاجر» دكتوراه في النباتات الطبية.

لم تكن سعيدة بلقائي، وجهها عابس ونظراتها كانت كالبركان الذي أراد أن يفجر غضبه ليحرقني وكأنها تشم رائحة قط ميت في إحدى الطرقات، لم تتحمل تواجدي، حاولت ألا أهتم لهذه المعاملة الجافة وأعطيتها كل العذر ربما لا تحب الغرباء.. أم تجدني منافساً أتيت من الخارج لأحدث هزة في استقرار عالمها؟.. عكس «عبير» التي استقبلتني بابتسامة فاتنة وعيون نظراتها شيطانية تجعل من قساوة الحجر ناعمة وكأنها تجهزت لاصطياد فريستها، جسدها كقصيدة

شعر غزلية، كلماتها معزوفة تطرب السامعين، كدت أقع في شباكها من أول لقاء.. لكني استرجعت قواي وعدت لرشدي،أنا هنا ليس لهذا ولم أدر مسبحتي لأعد محاسن «عبير» دعك من هذا.. هدفك أسمى من أن تكون صيداً سهلاً لعيونها الساحرة ...

- إذاً لنلتقي غداً.. اليوم أحببت أن أتعرف عليكم ونجهز ما نحتاج للعمل.

- أستاذة «عبير» بعد إذنك أريد قائمة بجميع الأجهزة المتوفرة في المختبر وغير المتوفرة.. قومي بالتنسيق مع عمادة الجامعة لتوفيرها بأسرع وقت ممكن.. شكراً لك.

- ما يهمك دكتور.. بكرة كل شيء يكون عندك.. يا ميت هلا بيك.

- أعتذر دكتورة «هاجر» إن كان وجودي قد أزعجك.. مع السلامة غداً نلتقي.

******

- «هاجر» شفيك اليوم؟ دخلتي ولا سلمتي.. شنو صاير؟؟ باين مزعوجة صاير شيء بالعمل؟

- معذرة أمي السلام عليكم.. هذا الدكتور الي جانه جديد عكر مزاجي.

- شبيه؟؟ شنو مسوي وياك؟

- هو يقدر يسوي شيء وياي أوقفه عند حده وارجعه بنقاله لبلاده.

- كل هذا على هونك بنتي كل هذا الغضب وما صاير شيء؟؟خبريني شنو الموضوع؟

- موضوع صغير لا تشغلين رأسك فيه.. اعرف شلون احله دكتور جديد جاي من الخارج ومسوي علينا مدير ما تقبلته ثقيل دم من أول يوم شفته هاوشته من تشوفينه تشوفين ضيق الخلق وياه.

- علت ابتسامة وجنتيها رسمت علامات الدهشة، هاجر اهدي.. لا تطلع عينك لو هل الرجال جنبك قطعتيه بأسنانك هذا ما بينك وبينه شيء وصار عدوك.

- أحر ما عندي أبرد ما عندك أمي.. جد ما حبيته قاهرني.

- توك وياه الرجال متى صارلك تحبينه ولا تكرهينه يا بنتي الأحكام الظنية تتولد وتصدر حسب المؤثر المسبق العاطفي اتجاه المختلف.... أو طائفة أخرى أو قبيلة ومن الغالب لا يكون هناك فكرة مكتملة ومعلومات كافية عن الآخر وعن القضية ولكن نسمح لأنفسنا نصدر الأحكام الظنية لأنه مختلف تحت طائلة الكره أو العدوان ضد المخالف لا يكون عندنا الأحكام الرصينة لأنه تحت تأثير المكتسبات المنقوصة والمغلوطة لذلك نسمح لأنفسنا بإصدار الأحكام الظنية التي لا تستند على معلومة أو دليل فقط يدفعه التخبط والمشاعر السلبية.

يا بنتي لنتجرد من الأحكام الظنية ونكون في أحكامنا متعقلين ونحذر من ظلم الآخر بجهالة.

******

- صباح الخير.. كيف كان صباحكم؟ إن شاء الله بالخير والسعادة.

- صباح الخير دكتور.. يا هلا بهذا الصباح الجميل.

- أهلا وسهلاً «عبير» يسعدني تقبلك لوجودي بينكم.. وهذا لا يبدو واضحاً لدى الدكتورة «هاجر».

- بما أنك تطرقت للموضوع.. نعم أشعر بالقرف لوجودك هنا نار الطائفية والتصنيف مزقت كل جميل زجت بقيحها الحقد في القلوب، أيها المتعالي الناظر من بعيد لم تعش ضجيج المدافع ولم يعكر صفوك رائحة الدماء، كيف لا أكرهك حينما أسمع إرهابياً جاء من خلف الأسوار حاملاً بداخله الكره والتكفير لشعب لم يره من قبل، حزم صدره بمتفجرات الظلال حاملاً على عاتقه قتل الأطفال والنساء والمسالمين قرباناً يعجل به إلى جنة ثمنها الدماء، المنظر مخيف، زجاج المحلات المتناثر أشلاء متناثرة اختلط طلاء الجدران بلون الدماء.. أي حب الآن تدعيه؟ لم أجد في هذا المنظر أواصر الإخوة.. اغرب عن وجهي وابعد سمومك عن بلادي يكفي ما حدث سابقاً.

- لهذه الدرجة وجودي يسبب الإزعاج لك، كلامك الخالي من المجاملة صدمني.

- نعم.. ماذا أتى بك؟... ولماذا أنت هنا؟... ألا يكفيك ما فعلتم بنا لتأتي وتمارس هواياتكم القذرة وابتزازنا بالأموال قتلتم شبابنا.

- اهدئي.. لا تشتاطي غضباً.. يؤسفني أن أسمع هذا

الحديث من دكتورة.. لابد أن تكون لديها الدراية الكافية والمعايير الواقعية لتفسير الأمور بشكل أكثر تعقلاً ...من نحن؟.. ماذا تقصدين بأنتم؟!.. هل تحملين مجتمعاً بأكمله ذنب شرذمة من الشاذين عن الحق؟!... لماذا تنساقين خلف أيدولوجيات مسيسة؟!... وهل تجرين خلف كل ناعق؟!... لماذا تسمعين ماكينة الإعلام الملوث من غير تحليل للمعلومة؟!... وما أهدافه؟!... ومن أهدافه أن نوزع الألقاب بيننا، تارة نشيطن أشخاصاً في وقت معين وفي مكان معين، وتارة نجعلهم ملائكة حسب ما تقتضيه المصلحة، وبتغير الأدوار والأحوال تتغير الألقاب، شخص كان يطلق عليه مجرم عتيد وشيطان مارد وفي ليلة وضحاها يكون ملاكاً قد وقع في زلل ورجع لرشده، وأظنك لم تسمعي عن الثكلى في بلادي.. ذاك اليوم كنت ذاهباً إلى الجامع القريب من منزلنا أمشي بخطوات متسارعة خوفاً ألا ألحق بالصلاة لأني خرجت متأخراً، قبل شارع من الجامع اختلط صوت المؤذن حي على الفلاح بصوت انفجار جمد أطرافي وصم سمعي جريت وأنفاسي بالكاد تسعفني وصلت لمنظر لا تصفه الكلمات.. أناس تجري في كل اتجاه، وجثث تسحب مسودة، وجوه خضبتها الدماء.. صراخ ونداء استغاثة سرق الأمان من بيت الله وسفكت حرمة لا إله إلا الله.. النار التي أحرقت رؤوسكم أحرقت أجسادنا، أستاذة «عبير» لو سمحت أعطني هذه الورقة المزخرفة خلفك، دكتورة «هاجر» بعد إذنك هل تنظرين إلى الورقة وتخبرينني ماذا وجدتِ بها.

- إلى ماذا تريد أن تصل.
- فقط لو سمحت دكتورة ماذا وجدتِ؟
- حسناً.. حسناً.. هناك نقطة سوداء في الورقة.
- لماذا سلطتِ نظرك على ما يشوه جمال الورقة مع أنها كانت بالنسبة لحجم الورقة لا تعني شيئاً؟ لماذا لم يلفت انتباهك النقوشات الجميلة في الورقة والخطوط المرسومة بإتقان؟...هكذا يكون حكمنا على الأمور، نركز على نقاط الخلاف والتباعد وننسى النقاط الكثيرة المشتركة بينما ننسى طبيعتنا الإنسانية، يا سيدتي الفاضلة أنا هنا لأقول لك أتيت لألتقي معكم بالنقاط الكثيرة المشتركة، أتيت لنصنع ما يخدم البشرية وأن نمد يد التعاون بيننا، كان قد لفت انتباهي المجسم الترحيبي في المطار، والذي يشير للعطاء لهذا البلد كما نفس هذا الرمز لدى وطني رمز للعطاء كم كان لوطني بصماته الخيرة تلامس إنسانية الجميع ولكن بعضكم يجحد هذا العطاء ويلوث الإخوة بيننا بقذارة السياسة يا دكتورة بيننا الكثير من المشتركات لذلك لنركز عليها ونتصافح وننجز عملاً تفتخر به أوطاننا وتسعد به البشرية.

بعد نقاش وتجاذب في الكلمات سلب غضبي هدوء الدكتور وحديثه المتعقل مع كل ما أسمعته من إهانات وكلمات قاسية هنا حل الصمت بعض الوقت أخذت نفساً عميقاً وكأنني أستعد للقدوم على رمي منديل القبول وتقبل الدكتور مما جعلني بعد الصمت أصرح بضعف حجتي.

- معك حق دكتور أعتذر منك لسوء استقبالي لك وهذا من الفكر المشوش لديَّ.

- لا عليك أتيت لك لأصفي فكرك وتتضح لديك الرؤية .. أشرقت الابتسامة على وجوهنا وبدا المكان يبعث بالإيجابية، علت على وجوهنا الرضا والسرور.

- دكتور متى نبدأ العمل؟ لقد ضاع وقتنا في هذا النقاش.

- نعم.. نعم..

- دكتور فارس سوف أذهب لتجهيز بعض الأوراق للبحوث.

- دكتور اتركها هذه تفكيرها رجعي وسلوكها عدواني، أعرفها من قبل لذلك أخبرك لتحذر وأنت تتعامل معها «فارس».. عفواً دكتور «فارس» لا عليك من هذه الأمور هذه الدكتورة رجعية في تفكيرها المنغلق على محيطها وتخشى الانفتاح على الغرباء صدقني إني افهم هذه النوعيات من البشر ..الآن لا أريد أن نضيع وقتنا في الحديث عنها سوف اجهز لك أحلى كوب شاي تدعيلي من بعده.

- حسناً أستاذة «عبير» أشكرك لتفهمك ويمكنك مناداتي من غير رسميات فأنا لا أجدها تمثل الشيء الكبير هي مجرد تعريف تخصصي ومكانتي العلمية ونحن فريق عمل نتكامل مع بعضنا لتحقيق النجاح.

- وهذا أحلى شاي لعيونك دكتور.

- شكراً لك.. أتعبتِ نفسك لا داعي لكل هذا.

- لا تعب و لاشي يسعدني ذلك ويكفي أننا فريق عمل أصدقاء وإخوة مثل ما تفضلت به من قليل.

- إذاً أعطني كوب الشاي وتسلم الأيادي هذا الشاي المعمول والمقدم بعناية طعمه لذيذ يبدو أنني سوف أدمنه والله يعينك كل يوم تجيبي لي كوب شاي من يديك.. أنا من محبي الشاي وأنتِ جنيتِ على نفسك في تقديم الشاي لي بهذه الحلاوة.

- ولا يهمك من عيوني كل يوم شايك أجهزه لك.

- تسلم عيونك.

- وغداً إن شاء الله سوف تكون قائمة الأجهزة التي طلبتها مني جاهزة.

- ما شاء الله.. إيش هذا النشاط.. أسعدني هذا الخبر وتفاعلك السريع، وهذا يجعلنا نمضي بخطوات ثابتة، سنقوم بتجهيز بعض العينات لبعض النباتات التي ستكون قيد الدراسة وعليكِ إن وصلتِ للمختبر غداً قبل أن أصل إخبار الدكتورة «هاجر» لتقوم بتحضير الأوساط المطلوبة في الدراسة.

- ولا يهمك ولا تشغل نفسك كل شيء سيكون حسبما تريد.

- أستودعك الله.. غداً نلتقي إن شاء الله.

- في حفظ الله دكتور.

******

بعد هذا اليوم وتفاصيله وما خلق لديَّ من تصورات عليَّ الآن الاستلقاء وأخذ قسط من الراحة، وكل ما يشغلني هل تسعى الدكتورة أن تكون عنصراً فعالاً لإنجاح البحث؟.

أم تكون حجر عثرة لتثبت فشلنا وعدم جدارتنا فيما ندعي لتحقيقه؟.

أرجو أن تتقبل تواجدي وتجدني عنصراً من فريق يسعى لتحقيق ما يخدم البشرية وتبتعد عن التفكير أنني عدو لها أو خصم جاء من خلف الحدود لمنازعتها.

آه لتلك الـ «عبير» أخذت من اسمها الكثير تجعل المكان معطراً بالحماس وبالإيجابية.. ابتسامتها، نظراتها التي تجعل عجلة الكون تدور، وجودها خفف عني الكثير من امتعاض الدكتورة وهجومها القاسي.. «عبير» تلك الفاتنة جعلت من عطرها ما يؤنس غربتي ووحدتي.

ما بك يا فارس تتغنى في محاسن «عبير» هل وقعت في شباكها؟ وما عليك إلا الاعتراف والاستسلام إليها ليسعفني النوم وأهرب من شبكة الصياد.. إذهبي يا رؤية لا تأكل الطيور في رأسي وتجعلني أترنح من خمرة العشاق، أعوذ بالله من موت الروح قبل الجسد.. لأنام وأستعد ليوم آخر من العمل أود فيه التقدم للأمام لدينا الكثير من الأعمال للإنجاز...

******

- السلام عليكم.... صباح الخير أستاذة «عبير».

- وعليكم السلام... صباح الورد دكتور... ابتسامتك تضيف للصباح جمالاً.

- كعادتك أستاذة «عبير» شمس تدفئ المكان.. إذاً أين

الدكتورة «هاجر»؟ هل قامت بتجهيز الأوساط،أم لم تخبريها؟.

- أخبرتها ولكنها لم تجب عليَّ ونظرت لي نظرة استخفاف وقالت من أنتِ لتعطيني أوامر وتجاهلتني وغادرت المكان.. لقد أخبرتك أنها لن تتقبل الانضمام للعمل مع فريقنا لماذا لا ترفع توصية للعميد بعدم كفاءتها وإخراجها من لجنة البحث ويتم ترشيح دكتور آخر بدلاً عنها؟

- يا الله لماذا كل هذا؟ ألم تتواجد هنا لإنجاز ما هو خير؟ لم أتغرب لإنجاز أمر شخصي فقط سوف أتكلم معها قبل أن أتخذ أي إجراء.

- إذا دكتور أنا سوف أذهب لجلب جهاز المطياف الضوئي «pectrophotometer».. لأن الجهاز الموجود في المختبر قديم جداً.

- حسناً...

******

- السلام عليكم دكتور.

- وعليكم السلام لماذا يبدو عليك الغضب ونظراتك فيها امتعاض وقهر؟ يبدو يومك بدأ على غير ما يرام.. هل هناك ما أستطيع أن أساعدك فيه؟

- أوف.. أوف..

- يا دكتورة لماذا هذه الحرب النفسية تستمر لماذا تحاولين إفشال البحث؟.

- أنا؟! ماذا تقول؟ لماذا تقول لي كل هذا وتلقي علي التهم جزافاً؟ هل بدر مني ما يجعلك في كل هذا الهيجان؟

- نعم دكتورة.. لماذا تعاملين الأستاذة «عبير» باستنقاص، ولم تقومي بتحضير الأوساط الزراعية؟

- أي أوساط؟ ومن استنقص من «عبير»؟ ومن أخبرك بكل هذا الحديث الفارغ؟ هل «عبير» من أخبرتك؟ دعني أتواجه معها لأبطل كذبتها.

- أرجوك دكتورة.. لا أريد خوض تحقيق لكشف الكاذب كل ما أريده أن نكون فريقاً متعاوناً إخوة وأصدقاء نتساعد لإنجاح البحث.

- ومن قال يا دكتور غير ذلك؟ بالأول تتهمني والآن تريدني أن أصمت وأنسى كل ما قلته من تهم ضدي؟!!

- لا عليك دكتورة.. يبدو أن هناك لبس وأنا سأتحقق من الموضوع وأعتذر منك.. أرجو أن تقبلي اعتذاري وسوء ظني بك.

- هل هناك أمر آخر تريد أن تخبرني به لأقوم بالعمل المطلوب مني؟

- يبدو أنك لم تتقبلي عذري.

- دكتور لو سمحت.. أعطني خطة البحث التي تريد إنجازها ولا أريد الحديث في أمور لا نفع منها.

- حسناً دكتورة مثلما تريدين، أحتاج منك تجهيز وتنمية ثلاثة أنواع من العزلات البكتيرية الممرضة للإنسان:

Escherichia coli

Pseudomonas aeruginosa

Klebsiella pneumonia

وثلاثة أنواع من الفطريات:

Candida albican

Aspergillus niger

Microsprum gypseum-

- إذا سمحتِ سجلي الملاحظات التي سأمليها عليك لأننا سنحتاج اليها لاحقاً.

- حسناً.

- «Escherichia coli»منها المفيدة والضارة التي تسبب الأمراض المعوية.و«Pseudomonas aeruginosa» تسبب تعفن الدم ولاسيما مرضى الحروق والتليف الكيسي وذات الرئة والمصابين بنقص المناعة المكتسبة.

«Klebsiella pneumonia» ترافق هذه البيكتريا المرضى اللذين يعانون من ضعف المناعة ومرضى الانسدادات الهوائية ومرضى الإيدز ، أما«Candida albican» تسبب عدوى الخميرة المعوية التي تنتقل من الأمعاء الى مناطق الجسم الأخرى.

«Aspergillus niger» يسبب الالتهاب الرئوي القصبي وقد يصيب مواقع أخرى كالعين والأذن إذ يسبب التهاب الأذن الفطري

«Microsprum gypseum» تسبب الأمراض الجلدية كمرض السعفة

وسنحتاج لتجهيز الأوساط الزراعية الخاصة بكلاهما وسوف نستخدمها في التجربة ويفضل استخدام وسط Macongi Agar للبيكتريا والوسط Sabouraud Agar Dextros للفطريات ...

-آه.. دكتورة لا تنسي أن تذكري من أين عزلت ونوع المرض الذي سببته.. بالإضافة إلى تجهيز المضادات الحيوية لغرض المقارنة.. وسيتبقى لدينا فقط التراكيز المثبطة الدنيا (MIC) لمستخلصات النباتات نقوم بتجهيزها وقت إحضار النباتات.

- طيب دكتور راح أعد المطلوب بأقصر وقت ممكن وسأحتاج زيارة لمختبر الأحياء المجهرية للتأكد من توفر العزلات المطلوبة لديهم...

- أشكرك... هذه «عبير» وصلت بالمعدات التي نحتاجها.

- «عبير».

- نعم «هاجر».

- قبل كل شيء أنا كنت في انتظارك لتوضحي لي سبب تصرفك ونقلك عني كلام وتصرف لم يحصل مني ليأتي الدكتور ويقوم بتوبيخي.

- دكتورة «هاجر» ألم أقل لك أنا سوف أحل هذا الإشكال؟

- اعذرني الموضوع يخصني أنا وأنا التي اتهمت بأمر لم يصدر عني... أجيبي «عبير».

- أي كلام؟! لم أوصل عنك أي كلام.. كل ما في الأمر سألني الدكتور عنك.. قلت له لم تصلي بعد وأعتقد هناك لبس في الموضوع اهدئي «هاجر» الموضوع لا يستحق كل هذا الهيجان.

- لماذا لا يستحق؟ وأنا من وبخت وألقي عليَّ اللوم.

- دكتورة «هاجر» سبق أن اعتذرت منك وأكرر اعتذاري فعلاً يبدو هناك لبس.. هناك أمور تحتاج توضيح، أليس كذلك يا أستاذة «عبير»؟

ها.... نعم.. نعم.. لنرجع للعمل وننهي هذا النقاش.

- دكتور هذه قائمة الأجهزة التي طلبت مني أن أعدها.

جهاز التعقيم Autoclave، الجهاز الهزاز shaker، المكسار الالكتروني Refractometer ،جهاز المطياف الضوئي Spectrophotometer، الحاضنة، جهاز اللهب Flame Photometer، جهاز التقطير البخاري Microkjeldhal.

وأستأذنك سوف أذهب لجلب أطباق بتري (Petri Dish) التي نحتاجها.

- طيب أستاذة «عبير» شكراً على جهودك.

****

آه يا «عبير» هذا الدكتور لي وإن أحرَق بتصرفه ورقتي لتطفيش الدكتورة «هاجر» لابد أن أشعل الكراهية بينهما إن طال الوقت سوف أجعلك تقع في مصائدي فأنا لا أستسلم بسرعة وسوف أخرج بطريقة ما من هذا الموقف وأعيد ثقتك بي.

«عبير» هذه لغز محير بدت كالوردة جميلة لكنها تخفي أشواكها.. لابد أن أعرف لم جعلتني في هذا الموقف المحرج لابد أن أستمع من الدكتورة وآخذ بخاطرها كلامي كان قاسياً

- دكتورة «هاجر».

- نعم.. تفضل هل هناك أعمال أخرى أقوم بها؟

- لا.. لا..فقط أحببت بعد إذنك أقدم لك دعوة لشرب كوب قهوة في كافتيريا الجامعة.. أرجو ألا ترفضي واعتبري الدعوة عربون صداقة وفتح صفحة جديدة لتصفية النفوس.

- امممم مع إني داخلي غضب منك ولكني سوف أقبل الدعوة كي لا تقول إن قلبي أسود ولا أقبل الغفران.

- أي كذا دكتورة ابتسمي تقطيب حاجبيك يجعلك مثل بركان ممنوع الاقتراب منه.. ابتسامة داعبت شفتيّ من ملاطفتها.

- لهذه الدرجة وجدتني خطراً قاتلاً يبدو أنني بالغت في غضبي.

- إذا لنذهب في استراحة الغداء.

- اتفقنا...

- دكتور أين تريد أن نجلس لنختر طاولة؟

- دكتورة أريد طاولة بعيدة عن الزحام.. ما رأيك بهذه هناك عند النافذة المطلة على بهو الجامعة؟

- حسناً دكتور.. اذهب هناك ودعني أنا أجلب قهوتك.

- لماذا أنتِ؟ ... أنا من قدَّم لك الدعوة.

- نعم... نعم لم نختلف ولكنني أعرف منك في التعامل مع

الأمور هنا.. أم نسيت أنني من أهل هذا المكان وأنت حديث العهد هنا.. ولذلك هل تسمح أن تذهب وتجلس هناك عند الطاولة التي اخترتها؟.

- حسناً... أعترف بهزيمتي ولكن أنا من سيدفع الحساب وهذا لا نقاش فيه.

مثلما تريد فأنا ضيفتك يا دكتور.

يبدو أنني لم أتعرف على «هاجر» بالطريقة الصحيحة كانت لقاءاتنا السابقة مشحونة بالتوتر والتصادم يبدو أنني تسرعت في الحكم عليها والوقت كفيل بأن يكشف أسراراً تخفيها ابتسامتها العذبة ونظراتها الخجلة التي تمنع من الإطالة في النظر لعيونها العسلية، بدت كالعقيق الصافي محتمياً خلف درع تحميها من المتطفلين...

- دكتور «فارس»... دكتور أين وصلت؟ أناديك وصلت منذ خمس دقائق وأنت مسافر بذهنك بعيداً شارداً ولم تنتبه لوصولي.. أودعتها ابتسامة خجلة وكانت ابتسامتي كفيلة عن إجابتي.

- أوف يبدو أن هناك من أخذني من هنا لعالمه.

- اذا إللي ماخذ فكرك يتهي به.. تفضل هذه قهوتك وهذه فطيرة بالشيكولاتة.

- أشكرك.

- إذاً فتحنا صفحة لا كُره فيها؟

- نعم إن شاء الله كل ما حصل سابقاً أصبح من الماضي لتعرف فقط أن قلوبنا بيضاء وعندنا المقدرة على النسيان

والغفران... الآن اشرب قهوتك قبل أن تبرد وتتهمني بذلك.

- حسناً... يبدو أنك تنتقمين مني ولا تسمحي لي بفرصة غير للدفاع عن نفسي.

- ماذا بك تكهربت وكأنك تشمئز، ألم تعجبك القهوة؟

- لا..لا عليك فقط يبدو أن كيلو من السكر بدا فيها نيابة عن القهوة.. لا أعلم إن كان هذا انتقاماً.

- لا.. لا.. سامحك الله لم أعلم أنك لا تحب السكر الزائد أتيت بالقهوة حسب ما أحبها أنا، ونسيت أسألك كيف تريد قهوتك.. إذا تقبلها لتكفر عن ذنوبك عقاباً لك شكلك يبدو مضحكاً وأنت تحاول جاهدا تقبل القهوة وتجاملني.

- سامحتك.

- اتركها إن لم تعجبك.

- «هاجر»... عذراً دكتورة «هاجر».

- دعك من الرسميات وخاطبني من غيررسميات.. ألم تقل نحن نمضي بصفحة جديدة؟

- مثلما تحبين، هكذا أفضل لأني أكره الرسميات «هاجر» نريد أن نحدد وقتاً للذهاب للمنطقة التي تحتوي على بعض النباتات المهمة في بحثنا وقد بحثت عنها ووجدت لها خصائص طبية كثيرة.

- ما رأيك الأسبوع القادم يكون لدينا وقت لتجهيز المعدات وفريق العمل والتنسيق مع الجهات الأخرى لتسهيل الإقامة هناك.

- حسناً... «هاجر» كما تريدين.

- «فارس» هل أسألك سؤالاً خارج العمل؟

- نعم تفضلي.

- لماذا اخترت بلادي لبحوثك؟ ألم تخشى على نفسك؟ وخاصة أن الأوضاع غير مستقرة هنا.

- قراري جاء بدافع الإنجاز الذي يخدم الإنسانية، ولا أخفيك لقد كنت متردداً في المجيء ولقد أجلت الموضوع كثيراً ولكن ما دفعني لأخذ القرار الحاسم... الحب.

- ماذا تعني بالحب «فارس».. عذراً.. قاطعت حديثك.

- أي عمل نقوم به بدافع الحب سوف نقوم به على أكمل وجه، ولأني أحب أن أنجز ما يخدم الإنسانية تغافلت عن المخاطر المحيطة وكنت أحث نفسي أنني سألتقي بأشخاص يشاطرونني هذا الحب، ولابد أن هذا البلد صاحب البصمات في مجالات متعددة في خدمة البشرية لديه الأعداد الوفيرة التي لديها هذا الاهتمام والشغف.

- إذا لا عليك.. حظك كبير ولقد حصلت على من يشاركك هذا الاهتمام ولا مو عاجبك ها؟... قول سمعني.. - أبانت اللؤلؤ المخبأ خلف شفتيها.

- أكيد يعجبني وهذا من دعاء أمي لي.. وأشكر العميد على إصراره أن تكوني أحد أعضاء لجنة البحث.

- على بركة الله.

وعندما انتهى حديثنا استأذنتني بالرحيل على وعد أن يجمعنا لقاء آخر في القريب العاجل.

لا أعلم ما الذي أشعل نار الاشتياق من تلك الحظة وكأني أحببتك وعرف قلبي وقلبك معنى العناق.. مشاعر غزت قلبي ولا أعلم كيف؟ ومتى؟ ولكن الحديث معك كان كالماء لمن اشتد به العطش.

شيعتك نظراتي وأنتِ تهمين بالرحيل وأنظاري تتابع خطواتك ونبضي يحسبها كما أنه بدا ينتظم معها.

تفتح أبواب الأمل
مع إشراقة شمس الصباح

(٤)

نبض القلب

- دكتور.. هل تجولت في المنطقة وتعرفت على تاريخها وأهلها؟

- امممممم... للأسف لم يحالفني الحظ منذ وصولي وأنا جل اهتمامي أن أضع حجر الأساس للبحث الذي جئت إلى هنا من أجله لم يخطر في بالي في هذا الوقت أن آخذ راحة وأتجول في أرجاء المدينة.

- هل أقدم لك اقتراحاً؟ واعتبره لوجه الله.

- يا لكرمك وكبر عطفك.. تفضلي أسمعيني اقتراحك الذي يقربك لله، بل وبذلتِ جهدك لتخبريني به.

- ماذا؟ أراك تستهزئ بي وتحاول التقليل من إمكانياتي.

- لا سامح الله من قال ذلك؟ فقط أجاريك في عطفك علي.

نبض قلبي ضحكات تعالت لما استشعر عفوية كلماتها.

- اسمع إذاً ومن غير مقاطعة.

- تفضلي كلي آذان مصغية ما رأيك آخذ من وقتي الثمين وأتبرع لك ببعضه في الإجازة الأسبوعية القادمة وآخذك بجولة لبعض المواقع في المدينة وأحدثك عن أهلها، وكما تعلم الأسبوع القادم سوف نذهب في رحلة عمل حيث نجلب النباتات المستهدفة في البحث.

- اقتراح جيد.. أشكرك لاهتمامك.

- إذا موعدنا يوم السبت الساعة الثامنة صباحاً، ماذا قلت؟..

- إن شاء الله موافق...

- ما شاء الله أراكما جالسين هنا.. لماذا لم تدعواني لمشاركتكما شرب القهوة يبدو أنكما تصالحتما.

- «عبير» أهلا بك.. انضمي إلينا تفضلي.

- لا عليك دكتور سوف نتحدث فيما بعد، الآن سوف أذهب، أحببت فقط أن ألقي عليكما التحية.

- ونحن سوف نمضي للمختبر لإنجاز بعض الأعمال.

******

«هاجر» هل تظنين أنني أدعك بهذه السهولة، سوف ترين من هي «عبير»، سوف أدعك تلهين لبعض الوقت وفي اللحظة المناسبة سأجعلك تندمين...

******

- دكتورة «هاجر» ما بها «عبير» تبدو غاضبة، والشرر يخرج من عيونها؟ هل أغضبها جلوسنا مع بعضنا، أم هناك أمر آخر؟ لعلي أسألها فيما بعد...

- دكتور «فارس» لماذا أنت مهتم بها؟ ولماذا تغضب من جلوسنا مع بعضنا؟ لماذا يغضبها هذا الموضوع؟... إلا إذا كانت تغار عليك؟

- ماذا ؟ تغار؟!!

- أمزح معك.. لا تنفجع ممكن هناك أمر شخصي جعلها متضايقة.

قبل أن تكون ضحية غضبك انتظر مرور العاصفة

(٥)

لماذا يا حبيبتي؟

تصرمت حبال العمر ولم يبقَ غير الحنين وهل يرجعك صوتك القابع بقلبي... أم تطمئنني عليك ذكرياتك التي أقلبها كل يوم قبل أن يأخذني النوم بعيداً عنها ...

خمسة أيام منذ أول اعتراف بحبي لها اختفت ولا أثر لها، لا تجيب على اتصالاتي ولا على رسائلي النصية منها والإلكترونية عبر الإيميل الخاص بها.. حاولت أن أصل لمعلومات توصلني لسكنها أو لمعلومات تنفعني، الكل يمتنع بشكل مهذب.

بدا الإعياء عليَّ واضحاً وعلامات الشحوب رسمت على وجهي هموم رجل ضاق به السبيل، هرم من ثقل على صدره، وإن كانت إجابتي على من يسألني ماذا حل بك تبدو متعباً قلت هذا من ضغوطات العمل وانشغالي بالبحث، إلا أن إجابتي لم تكن مقنعة لدى الكثير منهم، لم أكن حديث العمل معهم ولم يعرفوا مسبقاً أن العمل يتعبني لهذه الدرجة، طافت روحي ببيتك حاجة مغتسلة من كل دنس أصابها ومن كل خطيئة بدرت منها، وقفت تطلب منك أن تجعليها تستقر، ومن أتعابها ترتاح، وما الحب إلا انعقاد الأرواح ببعضها.. هجرت روحي مسكنها لتكون بمقربة منك إلا بعد هجرتها تذل وتفترش الطرقات باحثة عنك، تباً لحب جعلنا منها نشحذ بقاءه ورمى بنا ضحايا على جوانب الطرقات بعد أن كنا بذاتنا أسياداً. رسالتي لك من محب في وطن غربة تنمر عليه...

يا من أحببتها من غير سابق إنذار فقد غزوتي قلبي ولم يُبدِ أي دفاع أو تمنع، فقد اطمأن لقربك وأحس بشعور لم يعرفه من قبل، أرجو منك أن تجيبيني عن سبب تغيبك ...

مضت شهور منذ آخر لقاء لنا وانقطعت أخبارك وباءت كل محاولاتي بالفشل، طرقت كل السبل لأصل لك، وصل عدد رسائلي لك منذ ذاك الوقت ألفي رسالة تقبع في بريدك الإلكتروني ولم أتلق أي رد على واحدة منها وخمسمائة رسالة على هاتفك المحمول غير اتصالاتي التي يرد عليها أن الهاتف المطلوب مغلق، كم أنا محبط ويكاد جسدي يكون تابوتاً لروحي.. لم أستطع أن أنسى أو أتناسى وجودك رحلت لوطني في إجازة وقد فكرت أن البعد ينسيني ولكني أخادع نفسي لم آخذ معي غير جسدي.

قبل غيابك كنت أقلب قنوات التلفاز وكل الأخبار المحلية تشير عن وقوع تفجير في سوق شعبي لتتطاير الجثث متوزعة بين الأرصفة، المنظر مخيف ومحزن تلك المرأة التي احتضنت طفلها بجسدها لتحميه وتكون درعاً له منظر يبكي الحجر الأصم، مناظر كانت مثل الكابوس المخيف طفل يبكي بهستيريا يجري هنا وهناك ينادي بابا.. بابا.. كان يبحث عن أبيه وسط الجثث المتزاحمة على الأرض، فقدت عقلي.. بكيت.. لم أتحمل تلك المشاهد المريعة بشكل تلقائي، أخذت هاتفي وقلبي يكاد يخرج من صدري ضرباته المتسارعة القوية

وكأنه أراد أن يكسر القفص المحجوز داخله، أنفاسي أخذت في الضعف، العرق يتساقط من على جبيني مع أن المكان لم يشكُ من حرارة.. جف حلقي مثل تائه في صحراء لم يذق الماء.. اتصلت عليك الهاتف مغلق، اتصلت مرة ومرة ومرة حتى انهارت قواي، جلست على ركبتي أبكي مثل طفل فقد حنان أمه.. فقد صدراً يشعره بالأمان، لم أقدر على الذهاب الى الجامعة حتى تفقدوني وسبب تغيبي لليوم الخامس على التوالي وهذا لم يحصل مسبقاً، وجدوني ممداً على الفراش في حالة يرثى لها.. ذهبت للمستشفى.. نقص في التغذية وآلام في الجسم وفقدان النوم وذلك بسبب تعرضي لصدمة نفسية.. هذا كان تشخيص الطبيب حاولت أن أستعيد قواي وأتشبث بالأمل وأبحث عما يوصلني لحقيقة غيابك.. الأمل في إيجادك كان هو ما أعطاني القوة والتماسك، رجعت بعد ثلاثة أسابيع من المحاولة للتعافي رجعت للجامعة لأنجز مهامي ومن خلالها أبحث عن خيط يوصلني لك.

بعد شهرين من غيابك طافت على قلبي قافلة الأحزان حين تجاهلتِ تواجدي وكأننا أغراب لم يجمعنا الحب وعالمه، كانت رسالتك لي قاسية وزادت من حيرتي دمعة سعت بين عيني وشفاهي ليحترق قلبي، ألم يزفره بآهاته متى تعلمت هذا التجبر على قلب أحبك؟ ولماذا تضربين وجهي بنظرات كالحجر الدامي؟.

لماذا يا حبيبتي؟..

ماذا جنيت بحقك لأستحق كل هذا الألم منك؟.

نمت متعباً وكأن الكون اتفق معك، هربت بعد عراك خضته مع موجة قاسية من الأفكار البائسة، لم أستطع النوم كنت أحاول الهروب، كنت أريد أن أُكَذِّب ما حدث لعله كان كابوساً وأتعوذ منه ومن شره...

التقينا من بعد غياب كان اجتماعاً مع اللجنة العلمية للتباحث عما توصلنا له من نتائج في البحث، طار قلبي حينما لمحتك عيني تتخطين المقاعد، كنت أظنك تبحثين عني وتحجزين مقعداً بجانبي، لم يكن منك إلا أن جلستِ بعيداً في الجهة التي تبعدك عني وعن النظر المباشر لي، كنت أبحث قبل هذا عن سبب لغيابك الأيام الماضية، والآن أبحث عن ألف مبرر لك ولتصرفاتك، كيف جفت أرضٌ بقلوبنا سقيناها؟ ذبلت ورود بالوفاء والصدق غرسناها، ما لخطب حبيبتي؟.. لماذا حل الخريف ونحن نعيش فصل الربيع؟..

لماذا تساقطت أوراقنا؟.. من كسر عودنا؟.. يالله ألف وألف سؤال يطرق رأسي، أحتاج منك جواباً لقد حاولت الاتصال بك بدل المرة مائة ولم تجيبي، بكت العيون على الغائب فكيف يحل بالقلب إن نويتِ عني الرحيل؟...

- دكتور «فارس» هل أنت معنا؟

- عذراً دكتور «عبد الجبار» أحس بتعب شديد لا أستطيع التركيز.

- سلامتك دكتور... يمكنك الاستئذان الآن اذهب واسترح يبدو أنك تجهد نفسك كثيراً، ونحن سوف نكمل الاجتماع ولا

تشغل بالك بشيء.. ستجد جميع الملاحظات على مكتبك غداً.

خرجت من الاجتماع مسرعاً، التفكير يعصف بذهني، ذهبت إلى كافيتريا الجامعة وجلست في نفس المكان الذي اعتدنا الجلوس عنده، كنت على يقين أنك ستأتين هنا، لمحت طيفاً بدا لي في أول مرة أنني أتوهم أم أنني من كثرة التفكير تشوش عندي التركيز ولكن مشاعر داخلي تكاد تنبئني بحلول كارثة عليَّ، وفي أثناء كل هذا الصراع والنكران ورفض ما أشاهد من منظر يشتت ما تبقى من تماسكي وصلت «عبير» ولم أعلم بوجودها.. كنت في عالم آخر.. عالم خارج حدود المكان لم أنتبه إلا وهي تربت على كتفي.

- «فارس».. «فارس» .

- نعم... تفضلي «عبير» عذراً لم أنتبه لوجودك.

- لاحظت ذلك.

- «عبير» أترين من القادم هناك؟ هل هذا ما أعتقد، أم يخيل لي؟

- ماذا تعني؟ هل تقصد «هاجر»؟ نعم.. هي «هاجر» ومعها رجل شاب وسيم أعتقد هذا خطيبها.

- متى؟ وكيف؟ ألم تقولي لي إنها لا تأتي إلى الجامعة وكل التواصل بها مقطوع؟

- نعم.. صحيح أنها لا تأتي.. أظنها وصلت اليوم وقد سمعت أنها اعتذرت عن المضي في الأبحاث المشتركة ونقلت لقسم آخر.

لم أقدر على الصراخ، ولم أقدر على التحمل أو الذهاب لك.. الأرض لم تحملني.. ثقل أرداني للأرض فقدت وعيي لم أتحمل.. ألف سؤال بداخلي يحتاج إجابة: لماذا جعلتِ مني دُمْيَة تتلاعبين بها؟. لماذا كل هذا العذاب؟. هل كان انتقاماً؟. هل تقربك مني كان بدافع الكراهية؟ لم أجبرك على حبي ولم أفرض عليكِ مشاعري، كنا مندمجين متكاملين كان حبنا كالجبل الذي يلامس الغيوم مترفعاً عن كل الصغائر، هل هناك مبرر لكل ما دفعك لهذا؟. «هاجر» لقد قتلتِ ما تبقى داخلي من حياة.

******

بعدما نقلوني بالإسعاف، وبعدما استقرت حالتي خرجت من المستشفى إلى الفندق وقد عزمت على الرحيل، لم أعد أتحمل البقاء ولم أستطع أن أسمع اسمك أو أصادفك، البحث شارف على الانتهاء وسوف أشرف على بعض الأمور من بعيد وجعلتُ «عبير» مشرفة على ما تبقى من أمور...

«فارس» ليتك تعلم كم أنا عاجزة وكم صدري يؤلمني، وقفت مذهولة وأنا أنظر إليك ممدداً على الأرض والناس محتشدة حولك وأنا لم أستطع الاقتراب منك والاطمئنان عليك.. كم هي الحياة قاسية علي، لو فقط أخبرتك ولكن «عبير» هي من كانت تأخذ مكاني لم تفوت مثل هذه الفرصة.. أسندتك على صدرها محاولة حملك، هي من كانت بقربك وأنا

أنظر من بعيد، قد تراني مجرمة بحقك «فارس» هل كرهتني؟ سؤالي سخيف كل ما جرى لك بسببي.

آه... يبدو أنك كرهتني لقد جرحتك وأفقدتك بسمتك لكن يا ليتك تسمعني وتسمع قصتي، لا تستعجل في الحكم عليَّ...

جلست كثيراً وأنت فاقد الوعي ممسكة بالقرآن أقرأ لك وأدعو الله أن يرجعك.. أن يرجع وعيك.. كنت أواسي حزني بدموعي، «فارس» لا أستطيع أن أزورك من جديد كنت أختلق الأعذار كي أزورك.. سامحني سأترك لك شيئاً كان بيننا وأعتبر كل جزء منه مكملاً للأخَر، وأعتقد بعد ما جرى لك بسببي لا تجدني إلا عدوة لك.. أرجوك سامحني لم يكن بيدي ما أفعله كانت الأمور خارجه عن إرادتي ولا أعلم كيف كانت متسارعة... ولماذا انتقمت مني الحياة بهذه البشاعة.

أستودعك الله أرجو أن يأتي يوم وتعلم أنني لم أتخل عن حبك.. لا تظلمني أكثر مما أنا فيه..كم أتمنى أن أرتمي بأحضانك وأبكي بكاء الثكلى..آه لو تعلم ما حل بي.. آه لو تعلم.. «فارس» لا تكرهني أرجوك وتمسك بالحياة أنت شاب يستحق كل خير أمامك الكثير لتنجزه ارجع... ارجع... قم من هذا الغياب، استيقظ لا تهرب لا تغمض عينيك، لم يحن وقتك بعد، أرجوك فارس لا تفجعني بك، روحي هنا وجسدي يأمرني بالخروج قبل أن يلاحظون غيابي.

حملت حقيبتي استعداداً للسفر لأهرب من ضجيج البشر لألتقي بنفسي أشتاق لوحدتي لأبعد عن كل مهازل البشر

مللت أخذ دور الهارب، مللت تقبل الابتسامة الصفراء والوجه العابس بتغافل، لأنعم بالسلام مع نفسي من غير أن أضطر لتقبل وجوه خلفها ألف وألف قناع، أشتاق لأحتض وحدتي وحدها تشعرني بالحياة...

اتصل بي السائق إنه ينتظرني عند بوابة الفندق، بقي على رحلتي أربع ساعات هناك وقت ولكنني مثل الهارب لا أريد الانتظار، المكان أصبح مظلماً وتضيق أنفاسي عند الجلوس به، انتهيت من أوراق الخروج من الفندق وسلمت الاستقبال كل المتعلقات وسلمتهم المفتاح، كان آخر شيء يذكرني بك رقم هاتفك حذفته من قائمة الأسماء كي لا أضعف وأحاول الاتصال بك.. لم تتعبي نفسك في الرد على المئات من الرسائل تجاهلتني واستخففتِ بي وأنا كنت أموت ألف مرة لأجل أن أطمئن أنك بخير، ولكن كنت تتجهزين لطعني بعد كل هذا الغياب لأجدك وأنتِ مع شخص آخر ولم تلاحظي وجودي يا ليتك استمررتِ بكذبك ونفاقك وألقيتِ السلام عليَّ لتستمتعي بقتلي، أصبح اسمك يجعلني أكره نفسي، سأذهب ولا التفت للركام الذي خلفه حطام قلبي، لا أستحق أن أخسر ما تبقى من حياتي للحزن على ماضٍ كاذب، لابد لي أن أسترجع حياتي وابتسامتي، يا ليت قلبي يطاوعني لأكرهك.. وأنا أكرهك.. أكرهك.

- أخ «فارس».. أخ «فارس».

من المنادي؟ من يعرفني هنا؟!! التفت خلفي لأتبين من هو صاحب الصوت، يا ليت الليل حل ليسدل نقابه على وجهي أستترخلفه بأوجاعي.

ولا يراني الآخرون منكسراً...

لم أستوعب جلافة الحياة بعد، علامة سطرتها والاحمرار لم يزل بعد من أن سقطت عيني على المنادي شحب وجهي وتغيرت ملامحي المعفرة بالتراب إلى ملامح صلبة متماسكة وحادة النظر، هل أتيت لتعتلي على أنقاضي وتبتسم ابتسامة المنتصر؟.

لا أعتقد أن هناك ما يجعلنا نتبادل الحديث مع بعض، هل سبق أن التقينا؟ سبق أن تمرغ قلبي بالإثم فقد حان وقت تطهيره من حب فاسد لم ألفظ أنفاسي بعد ولم أعطك هذه الفرصة وتشمت بانكساري...

- لحظة دكتور فارس هل انتهيت من حديثك؟ هل تعطني فرصة أتحدث لك وأرفع هذا اللبس؟ لقد رميتني بكل صفات السوء وأنا مقدر انفعالك وغضبك ولكن هذا لا يعني تقبل هذه التهم، الآن أنت مستعد للرحيل ولم يثنك شيء، لن تخسر إن أعطيتني من وقتك عشر دقائق فقط لأوضح بعض الأمور وبعدها بإمكانك الرحيل والابتعاد عن كل هذه الفوضى.

أنت متفرد بذاتك، لا ترهق نفسك
بالمقارنة مع الآخرين لإثبات جدارتك.

(٦)

رحلة استكشاف

عند وصولنا استقبلنا رجل مسن بدا عليه تعب الحياة ومعه شابان يساعدانه، أخذوا منا أمتعتنا واستعددنا لركوب الزوارق الخشبية الصغيرة المعدة لنقل الركاب بين دفتي النهر.. كان يستعين بقصبة طويلة تساعده لتحريك الزورق الصغير، جلوسنا كان غير مريح ويبدو أنه لا أحد يهتم بأمور السلامة، لاحظت أنه لم يلفت انتباه أحد من المرافقين معي أن الزوارق بدائية ولا تحتوي على وسائل السلامة، المنظر كان خلاباً، بساط الماء الممتد بين نباتات القصب المترامية بجانبيه، الجو كان لطيفاً وهذا غير معتاد ولكننا كنا محظوظين، استمتعت بطبيعة المكان التي لم تلوثها معدات البشر من جرف وتخريب، الطيور المتنوعة بدت وكأنها أخذت من المكان مهجعاً لها كانت متنوعة ومنها طائر الفلامنغو، كم كان المنظر يأسر النفوس المكان مهمل بعض الشي والأوساخ تعكر جماليته، اختارت لنا الدكتورة «هاجر» موقعاً مسبقاً، كان بيتاً صُنع من القصب والطين يعرف بـ«بيت الطين» خالٍ من أي تجهيزات حديثة ومعد لزوار المنطقة، أنزلنا معداتنا، سلم المساعد الذي معنا صاحب الزوارق الأجرة التي كانت في حدود ٤٠ دولاراً، أعددنا وجبة الإفطار وكانت «هاجر» تجيد عمل الخبز أعدت لنا خبزاً عربياً ساخناً وشهياً وأحضرنا معنا «قيمر» وجبة مشهورة لدى أهل المنطقة مصنوعة من الحليب الطازج يعرف باسم «قيمر عرب» وبعض الأطباق المختلفة، كان جواً ممتعاً في روح الصداقة والإخوة خارجة

عن رسميات العمل، عفوية وضحك وتبادل الحديث الشيق بين الأحبة، أعد لنا أحد الزملاء المرافق لنا «جاسم» شاياً على طريقة أهل الجنوب، شاياً مخدراً على نار هادئة كان شاي مرولونه يميل للسواد ثقيلاً احتجت أربع ملاعق سكر كي أستطيع الاستمتاع بشربه كان الشاي أشبه بالمنشطات...

- أشكرك أخي «جاسم» على إعدادك له.

أما أنا فكان دوري إعداد بيض مقلي بشرائح الطماطم، بعد الانتهاء من هذا الإفطار ذهبنا لاستكشاف المنطقة والبحث عن النباتات، وقد أعطتني «هاجر» فكرة مفصلة عن المنطقة المسماة «الأهوار».

- هيا يا شباب لنفترق النباتات المطلوبة ((الحلبلاب ، الشمبلان ، زهرة البط ، البردي ، لسان الثور))

كل اثنين يختاران نوعين من النباتات ويتكفلان بجمعهما.

- «فارس» أنا سأختار البردي.

- حسناً وأنا معك لنذهب مع بعض.

- إذاً هيا بنا، هناك الكثير منها..

- يا دكتورة تعلمين كم الناس تتحدث عن النباتات والعلاجات المستخلصة منها من غير دراية عن مضارها وأن هناك نسب لابد التقيد بها.

- بالفعل دكتور كالنباتات التي نحن بصدد دراستها فيها فوائد عديدة ف «الحلبلاب» نبات متسلق يحتوي على أصابع

في داخلها حليب من نوع خاص يستخدم في علاج الأمراض الجلدية، «الشمبلان» نبات على شكل طحالب ينمو داخل الماء، «زهرة البط» نبات لونه أبيض قاني وذو رائحة زكية وطيبة جداً، «البردي» وهو نبات معروف ومشهور وهو المصدر الرئيسي لمادة «الخريط»، «لسان الثور» نبات له أوراق عريضة تتحرك في الماء.

لكن ما لا يعرفه غير المختص طرق أخذها والنسب المطلوبه هل ترى ما هذا؟

- نعم.. حبوب لقاح البردي.

- أحسنت هل تعلم أنه يُصنع منها أجمل حلوى تعرف بـ «الخريط».

- خريط؟!

- لا.. بتشديد الراء.

- ألم تجدوا اسماً أسهل من هذا؟

- جاءت التسمية نسبة إلى طريقة صناعته التي تعتمد على خرطه (استخراجه) من أعماق قصب البردي خذ تذوقها لذيذة...

- «فارس» شكراً لك لاختيارك هذا النبات، منذ وقت وأنا أفكر بإجراء دراسة على هذه المادة.. لابد أن لها فاعلية طبية عالية ولم تتطرق الدراسات لها...

سَقَطَت من القارب الذي كان يوصلنا عبر النهر، سَقَطَت كالحورية من غير ضجة على غفلة، لم يكن هناك أي

اضطراب في النهر ولا هلع بدا على القارب، لحِقتها ومن غير تردد كانت عندي ردة فعل سريعة لأنتشلها من الماء، بدا عليها الخوف وأطرافها ترتجف ارتمت على صدري باحثة عن الأمان وكنت محظوظ إذ أودعتني صدرها وأشكر النهر الذي كشف عن خصلاتها المختبئة خلف الحجاب، كان كالشلال منسدلاً من قمة جبل، كان الموقف مربكاً، هدأت من روعها وطمأنتها أنها بخير، ولقد انتهى الأمر بسلام.

مع كل ما في الحادث من توتر ولكنه كان مفتناً أرعب قلبي وسيطر عليه مع ما كشفه النهر لي من جمال مستتر عن العيون المفترسة، أخرجت لها من حقيبتي سترة جافة لترتديها كي لا تصيبها نزلة برد، وبعد ما هدأت وانتبهت لانكشاف شعرها خَافَت، وبشكل سريع بَحَثَت عن حجابها لترتديه وهي خجلة من هذا الموقف ولكي لا أزيد الأمر عليها تعقيداً لم أشعرها أنني ألاحظ ما حل بها..

هناك أقنعة
تكمن خلفها قلوب كالحجارة
وابتسامة تدس السم بالعسل

(٧)

الحب الوجه الحقيقي للحياة

أيام وتسد السماء أبوابها وتتلاشى آخر غيمة أمل انتظرت هطول أمطارها وترتوي أرض أماتها الجفاف، أمتار تفصلني عن بوابة رقم سبعة حيث تكون رحلتي إلى المجهول تاركاً أرضاً نزف قلبي على تضاريسها، قاسية لا يرمش لها طرف عين يطيب لها عذابي، لا أريد أن أُدفن في بطنها لتلفظني شِدَّة حرارتها، لا أحد هنا يهتم بخياطة جرحي وتسكين آلامي...

الظلام في السماء، بدا السواد عنواناً لكل شيء، هل حل الكسوف بأشعة الشمس؟، اضطرب القلب يبتهل لله تقرباً يا رب أرني النور لأهتدي ضالتي، قلبي موجوع.. ولا أعلم أين السبيل وأنا غريب أضاع الطريق، هل هناك أمل أتمسك به لأنجو من معاناتي؟.. أرسل لي يا رب من يُلقي في طريقي طوق نجاتي.. هل من علامات تدلني على باب فرج؟ أثقَلَ التفكير رأسي حتى ضاقت عليَّ الأرض الواسعة، أستنشق الألم وأزفر الضياع.

لماذا كل هذا حل بي؟ ما هي جنايتي؟ آه لثقل خطواتي هل من مَرَض أعانيه، أم كَبُرت سني؟، لم يثقلها غيرَ هَمّ قصم ظهري.

هل أصبحت قلعة علت أسوارها واشتدت تحصيناتها؟

وهل أكون فاتحاً لتلك المملكة ومحطم حصونها المنيعة، أم تتحطم رايتي عند أبوابها؟

والآن لا عزاء لقلبي فقد غابت كل أمانينا.

حقائبي جاهزة، عليَّ فقط الرحيل من غير أن ألتفت

للوراء، كم كانت الدموع كلمات يعتصرها الألم، كنت أطلب نور يحطم الظلام، كم كنت أتمنى أن ألثم وجنتيك وأعانقك قبل الوداع ولكن ناموس الحياة يمنعني.

- لحظة لو سمحت هل لي أن أحدثك بأمر مهم.

- وما هو هذا الأمر المهم الذي يجعلني أتأخر عن رحلتي لمجرد أن رجلاً لا أعرفه استوقفني؟ هل سبق أن التقينا؟ أم هناك سابق معرفة؟.

- لا.. لا أظن ذلك.. اهدأ من فضلك دعني أتحدث كي أخبرك ما الذي جعلني آتي إليك مسرعاً وأحمد الله أنني لحقت بك وإلا كنت عشت ما تبقى من حياتي بألم وندم.

- نعم.. تذكرت أين رأيتك من قبل.. كنت جالساً بالطاولة الغربية من الجدار في كافتيريا الجامعة وكانت ترافقك الدكتورة «هاجر».. الآن عرفت سبب مجيئك هل أتيت لتقدم لي كارت الدعوة لحضور زواجكما،أم أتيت لتطمئن أنني سأرحل وبذلك تستقر حياتك؟

- دكتور فارس زواج من؟... ماذا تقول؟... يبدو أن الأمر فيه لَبس وأنك تتوهم أموراً غير حقيقية لهذا دعني أخبرك.

«هاجر» بدت ذابلة كشجرة غزاها الخريف مصفرة لا تجد من ملامح الحياة على وجهها، ذابلة وكأنها بعمر الهرم لا تقوى على الحراك، السواد أسفل عينيها كظلمة الحياة فقدت بهجتها ورغبتها بالحياة، يبدو أننا أسأنا فهم ما يدور وطغت علينا عنجهيتها وكنا قادرين على الاستمرار، ولكن ما أخافنا أن نفقد «هاجر» من بين أيدينا، سأخبرك ما حصل.

- نعم أستمع.

- صرت واقفاً كالخشبة المسندة، لم أقدر على الحراك بعد سماع حالها وأنا الذي هممت بالرحيل، رحيل عاجز وناقم عليك يا «هاجر».

- دكتور «فارس» هل أنت منصت لي؟

- نعم.. أكمل وقبل ذلك أخبرني من أنت، من تكون إن لم تكن زوج «هاجر» المستقبلي؟

- سأخبرك.. لا تقلق.. أنا «محمد»... و «هاجر» تكون أختي.. بدأت الأحداث من استقبالي اتصالاً من رقم غريب.

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام.

- هل أنت «محمد» شقيق «هاجر»؟

- نعم.. ومن المتحدث؟ هل «هاجر» بخير؟

- لا عليك باسم المتحدث.. اعتبرني فاعل خير.

- وماذا هناك يا فاعل الخير؟ بدأت أقلق هل الأمر متعلق بأختي، أم ماذا؟

- نعم الأمر متعلق بأختك وأنا هنا من باب حرصي وخوفي، اهتممت أن أنقل لك هذا الخبر قبل أن يقع المحظور عندها لا ينفع الندم.

هل أخبرتني من فضلك، لم أعد أتحمل أكثر.. أخبرني ماذا هناك، من غير مقدمات.

- امممممم.. أختك «هاجر» تلتقي برجل غريب ولقد حذرتها من قبل من عقبات ما تقوم به ولكنها لم تستمع لي.

- ماذا تقول؟ كيف تتجرأ وتتحدث عن أختي بهذه الطريقة؟ وتلقي التهم عليها، إن لم يكن عندك ما يثبت كلامك أغلق السماعة ولا ترمي أعراض الناس بالباطل.

- لدي الدليل لقد سمعت أنهما سوف يلتقيان عند شجرة آدم بعد غد.. إن أمكنك الذهاب ورؤيتهما بعينيك لتتأكد من كلامي.

- ولكنني خارج المحافظة وكلامك خطير لن أقدر على التواجد قبل يوم الجمعة.

- لا عليك أنا سأحضر لك الدليل، كل هذا والله لأنني أريد الخير لأختك وحريص على سمعتها.

- إذا يوم الجمعة ألتقي بك قبل ذهابي للمنزل ولكن ثق إن لم تكن صادقاً معي سوف ألقنك درساً لن تنساه.

مضت الأيام ثقيلة كالصخر على صدري أنتظر يوم الجمعة وأؤمل نفسي أن يكون المتصل كاذباً.

وصلت المحافظة يوم الجمعة الساعة الخامسة عصراً اتصلت على الرقم الذي اتصل بي وحدد لي مكاناً ألتقي به، كان عند مول «التايم سكوير» الساعة السادسة وكأنه أراد أن ألتقيه في مكان عام مزدحم بالناس كي يتفادى ردة فعلي ويحذر من نار غضبي، وصلت إلى المكان المحدد أخرجت هاتفي المحمول اتصلت به قال أنا هنا واقف عند المحل المقابل لك، تقدمت له، رجل ومعه امرأة بدت عليها ملامح الدهاء، الرجل

ألقى عليَّ التحية وبعدها لم يتحدث وكأن مهمته انتهت، قالت المرأة التي بجانبه أعتذر عما سببته لك من قلق وحيرة ولكني أريد الخير.

- يا أخت لا طاقة لي بهذه المقدمات.. من أنتِ؟ وماذا عندك من دليل يثبت ادعاءكِ؟

- أنا «عبير» زميلة «هاجر» في الجامعة.

- أنتِ صديقة «هاجر».. إذن الأمر جدي.. أخبريني من يكون ذلك الغريب، وقفت «عبير» وعليها ملامح الانتصار بعد ما وجدت أنني استسلمت لحقيقة كلامها ومصداقيتها، ابتسمت ابتسامة أشبه بالشيطان.. تلك المرأة بدت كالحرباء تتلون، صمتت لحظات وكأنها تستعد للضربة القاضية، أخرجت من حقيبتها ظرفاً مغلقاً، قالت هذا الدليل الذي تبحث عنه بإمكانك الاطلاع عليه والتأكد من كلامي ثم نظرت لي نظرة ماكرة وقالت:

- أخ «محمد» انتبه لنفسك.. سوف أذهب، هنا انتهت مهمتي والباقي عليك.

اختفت من أمامي وأنا أطرافي مشدودة، وبدأ جبيني يعرق ونبضاتي تتسارع، أمسكت بالظرف متوتراً، ترددت في فتحه، ذهبت مسرعاً كي أصل لسيارتي لم أقدر على الوقوف في ذلك المكان أكثر من ذلك، فتحت الظرف بعدما جلست داخل السيارة لم استوعب ما أنظر إليه، كانت «هاجر» جالسة محتشمة ولكن هناك رجل بجانبها لم أبحث أكثر عن تفاصيل..

كلما نظرت للصور أكثر اشتطتُ غضباً، كل همي كان أن أصل إلى المنزل، عندما وصلت بدأت أصرخ ووجهي محمر، الكل مصدوم.. ماذا حل بي؟ لماذا أدخل البيت بعد غياب بهذه الطريقة غير المعتادة مني؟ ناديت «هاجر»... «هاجر»... تعالي.. جاءت مسرعة كانت تتوقع أخاها بعد الغياب يشتاق لها وجاء لها بهدية تسعدها ولكنها وجدت بركاناً انفجر أول ما وقعت عيناي عليها ضربتها على وجهها، لم تستوعب تَصَرُفي لماذا لم أجب عليها.. ضربتها ثانية بشكل عنيف حتى وقعت على الأرض.. لم يوقفني غير صوت أبي: «محمد» قف مكانك لقد تماديت كثيراً.. الآن أعطني تفسيراً عن سبب تصرفك وضربك لأختك وأنت تعلم لم تكن هذه طريقتنا في حل الأمور ولم أُربِّك على هذه الهمجية.

- إذا تريد مني أن أخبرك سواد الوجه الذي جاءت به بنتك المحترمة.. خذ هذا الظرف يغنيني عن الكلام ولكن أنتظر منكم إجراء تتخذه أنت وأمي، كان يوماً كئيباً وبدا بيتنا حزيناً وكأننا فقدنا عزيزاً علينا ولبسنا سواد الحزن عليه، اجتمعنا واصدرنا الحكم على الجانية من غير أن نستمع لها أو نجعلها تدافع عن نفسها، ولا تستغرب نحن شعب تسيطر عليه الأعراف العشائرية ونجرد المرأة من حقها في الاختيار ولا قرار لها خارج إرادة الذكور الذين تكون تحت رحمتهم ومهما بلغ عمرها أو مكانتها العلمية أو الاجتماعية قد تكون من نصيب أحد أقربائها وإن لم يكن كفؤاً لها.. يكفي أن يقول إنه يريدها ويكون أحق بها، وقد تكون عانساً جليسة البيت لخدمة

الذكور وذلك لأنهم لم يقتنعوا بما يناسب غرورهم الذكوري، قانون العشيرة يفوق الشرع وإن كنا نبدو أننا نهتم بالشرع، العرف العشائري دائماً يكون مُقَدَماً وكأن مسألة الزواج من غريب أمر مرفوض وهذا ما جعلنا نعاقب «هاجر» ونتجرد من مشاعرنا تجاهها كإخوان وأب وأخوات، جعلناها سجينة غرفتها ولا يسمح لها بالخروج إلا لدورة المياه، عزلناها عن المحيط الخارجي وبعد شهرين من العزلة والحرمان عطفت عليها أمي وقالت لن أسمح باستمرار هذا الأمر، لن أنتظر حتى أفقد ابنتي، هنا سمحنا لها بأن ترجع للعمل بشروط من ضمنها أن تعتذر عن عدم المشاركة في البحوث المشتركة وأن أرافقها للجامعة، وكان ذلك اليوم الذي رأيتني فيه في الكافتيريا اليوم الأول لعودتها.

هل تعلم عندما رأيتك في ذلك اليوم ممداً فاقد الوعي وقفت أنظر لك وكلي حزن.. وكان هذا المنظر ما جعلني أراجع نفسي وأفكر بعقل لا بمشاعر الكره والغضب.. مع أنني لو التقيتك على غير هذا الحال كنت أعطيتك بعض اللكمات التي تغير ملامح وجهك، ولكن هذا الموقف أعطاني درساً أن الكره والحقد لا يولد منها على أنقاض عليها وقفت منتصراً لنفسه ولكن ماذا جنينا غير الخراب والدمار والتفكك.. كل هذا فقط لكي تكون كلمتنا العليا.. الكُره لا نجني منه إلا الشوك المؤلم.. كدت أخسر أختي بدافع الكره والغضب.. أنت و «هاجر» تَمَثَّل الحُب بكما كالبستان الذي تجمله الزهور، نعم.. الحب يجعل من الحياة جنة غَنَّاء مهما كانت بها من

ظروف قاسية.. أن نعيش بين الآخرين برابط الحب نجني الخير والتسامح والود.. الحياة من غير حب كالأرض الخربة لا يعيش بها غير الجرذان وتتكدس بها النفايات.

الآن سَمعت مني أرجو أن يكون ما سمعته يغير قرارك للسفر.. «هاجر» بانتظارك صدقني مع كل ما مَرَّت به من ظروف قاسية لم تتخلَّ عنك.. وأعتقد أن تمسكها بك هذا الأمل الذي كانت تعيش لأجله وإلا كانت قد استسلمت لقساوتنا وتخلت روحها عن جسدها.

- يا الله هل ما تقوله حقيقة، أم أنا في حُلم؟ أرجوك أخبرني.. لم أعد أستوعب، بدت الأحداث والصدمات تتوالى عليَّ.

- دكتور.. أنت في كامل وعيك، الآن بعد كل ما عانيته أنت و«هاجر» يحق لك أن تفوز بها كما فزت مسبقاً بقلبها.. وأنا سوف أرتب لك كل الأمور وآخذ موعداً من أبي كي تزورنا في البيت.. بعد كل هذا هل أنت مُصر على السفر، أم أرجع حقائبك وأعزمك على الغداء ليكون غداء صلح بيننا؟

- سفر.. أي سفر؟ من قال ذلك؟

ردت روحي لجسدي حتى فاضت مشاعري على وجنتي فخطت ابتسامة عريضة على شفتي.

الإحسان من أعلى مراتب الخلق النبيل
الذي ينقش أثره في القلوب..
- ازرع ما تحب أن تحصد -

(٨)

من ألمي أصنع الدواء

- «كاترين» اتصال من «كاترين» هل هي بخير؟ منذ وقت لم أتواصل معها.

- هلا أخت «كاترين» هل أنتِ بخير؟

- بخير أخي «محمد» لا تخف.. كل شيء بخير.

- اتصلت فقط لأخبرك أنني مَللت الجلوس.. وأريد أن أقدم شيئاً يخدم الناس في الخارج.. كل شخص في هذه الحياة له رسالة ولابد أن يترك بصماته على صفحات الحياة.. لذلك عزمت على تقديم خدماتي للمقيمين في المخيمات هناك، هم بحاجة لمن يقدم لهم العلاج وأنا طبيبة.. ولابد أن أخفف عنهم بعضاً من هذه المعاناة.

- حسناً «كاترين» خيار جيد.. وفقك الله... غداً أوصلك إلى هناك وأرتب كل ما تحتاجينه للبدء في العمل.

- أشكرك «محمد» لقد أتعبتك معي كثيراً.

- أستغفر الله.. لا عليك.. لا أجد إلا السعادة في خدمتك والشكر لله لجعلي سبباً في إعادة حياتك.

ذلك المركز الطبي البائس لم يكن شيئاً يذكر غير أنه بالجهد يخفف من آلام القابعين في هذا الملجأ، لم يتوفر فيه غير أجهزة بسيطة لقياس العلامات الحيوية.. مقياس للحرارة وضغط الدم والعلاجات كانت مجرد مسكنات وقليل منها ما يكون ذا جدوى، بعض الأيام يتم توفير علاجات كثيرة لمرضى الأمراض المزمنة وأيام لا يتوفر شيء منها.

المركز يتم دعمه من أُناس متطوعين.. الجميل في هذا المركز هو اندماج الجميع في كتلة واحدة.. لا تشعر باختلاف الطوائف والجغرافيا.. الكل هنا لغته واحدة ودينه واحد، يجمعهم هَم واحد، المعاناة الإنسانية وجبر قلوب كسرتها أيادي الجور.. لا أنسى موقفاً حُفر في ذاكرتي وكأني أنا من عايشه.. قَدِمَت امرأة للفحص عمرها لم يتجاوز الأربعين سنة من الوهلة الأولى ظننت عمرها تجاوز الستين، ملامحها جسد مثقل لا روح فيه.. عيون ذابلة وشفاه متيبسة.. شعرها خضب بالشيب ما جعلني لا قدرة لي أن أمنع نفسي عن قصة هذه المرأة الميتة.

- أختي أستميحك عذراً.. هل لي بسؤال؟

- تفضلي.

- لماذا لا حياة بجسدك.. ضغطك مرتفع وأنفاسك متعبة؟

- يا دكتورة السؤال الصحيح لماذا لم تُدفني إلى الآن، لماذا جثتك لم تتفسخ إلى الآن؟ فقد مِتُ ألف مرة منذ وقت مضى بعد هروبي من الموت الذي هجم على مدينتنا بعد يوم شاق مشياً على الأقدام والشمس الحارقة وبعد ساعات من المشي أنا وأطفالي الخمسة بعد أن قُتل زوجي.. قبل هروبنا استوقفتنا نقطة تفتيش من أين انتم؟... وإلى أين أنتم ذاهبون؟... بعد تحقيق وَذُل وإهانات قال قائدهم سوف نجعلك تعبرين.. ولكن لكل أمر ثمن، ولعبورك يجب أن تتخلي عن اثنين من أطفالك هُنا صُعقت.. وكيف أتخلى عن أطفالي؟ ومَن أختار منهم؟ أصبحت في موقف مميت.. أُجبرت

على الاختيار ومنذ ذلك اليوم وأنا مَيتة، لا عِلمَ لِي بما جرى لهم.. ولو أن الموت أخذهم لكان أرحم بحالي...

هذه المرأة أنستني كل ما جرى لي وأعطتني درساً ألا أرى العالم بمصيبتي.. اجتهدت لتقديم كل الخدمات الطبية لها.. اهتممت بها، بشكل يومي، أذهب لأطمئن على أحوالها وأطلب لها الوجبات الغذائية.. كل هذا لن ينسيها همها ولكني حاولت أن أقف بجانبها وأن أشاركها أوجاعها.

الحقيقة لها وجهان..
فلا تستعجل في إصدار الأحكام

(٩)

شجرة آدم

أقرأ بوجهك معاني الجمال، غداً أنعم بخوض تجربة السباحة عكس التيار وأريد أن أصل لمرساك وأن يضمني مرفؤك بحنانه، وجدت في عينيك أمان الغريب رغم ما كان غضبك يخفيه أو أردتِ أن تتستري على ما تحوي عينك من جمال فطري نقي لم تتعلق فيه الشوائب، هل أنجح في الوصول لقلبك يا ذات الجمال الطفولي؟ عيون كالعسل المصفى وأنف كالسيف في حِدته.. جسم نحيف كالغصن النَّدِي.. جمال زاده عفة وحجاباً منع النفوس الضعيفة لكشف أسرار ما يخفيه.. كنتِ تَصرخين وتُحدبين حاجبيكِ مُحاولة أن تشوهي عذوبة قلبك وطهارة نفسك.. لكن هذا السد الذي حاولتِ أن تتصنعيه بيننا إن شاء الله سوف يكون ركاماً منذ هذا اليوم.. يا رب أعني كي أفوز بقلبها...

الآن ماذا أختار من ملابس.. لابد أن أختار ملابس تليق بمثل هذا اللقاء.. ويخرجني من الرسمية.. أعتقد أن هذا القميص الأزرق بلون البحر الهادئ والبنطلون الجينز مناسبان لأكون بشكل جميل...

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام... صباح الخير.

- صباحك سعيد... ما شاء الله وصلتِ في الموعد، يتضح أنكِ دقيقة في مواعيدك.

- غمزت بعينها إشارةً بالموافقه على كلامي.. نعم هوكذلك،

اليوم سأكون المرشدة السياحية لك وأعطف على وحدتك في بلدي.. ولكي لا تقول لم نقم بالواجب معك.. استمتع بالرحلة ودع الباقي عليَّ.

- إذا لننطلق بحفظ الله... يسرني اكتشاف المدينة برفقتك

- أتعلم؟ هذه المنطقة قابعة في عمق التاريخ لذلك تعد أول مدينة بناها المسلمون خارج الحجاز سنة ١٤ هجرية، لها أسماء وألقاب عديدة منها «قبة العلم، وأم العراق، وثغر العراق الباسم، وفينيسيا الشرق» وهذا الاسم جاء بسبب كثرة أنهارها.

ماذا بك، أجد علامات التعجب مرسومة على وجهك؟

- نعم أدهشتني هذه المعلومات ولأول مرة أسمع بها.

- لا تندهش من الآن.. ما هذه إلا البداية وهناك المزيد من المعلومات التي تجعلك تنبهر.. ولكن دعنا نقف هنا نتناول إفطارنا.. ومن ثم نمضي لإكمال الجولة، ما رأيك؟

- نعم هذا رأي جيد.. لأن عصافير بطني تزقزق.

- إذا لنستجيب لنداء معدتك، هذه الكافيتريا لديها سندويتشات كبدة طعمها لذيذ جداً.. ستشكرني لاختياري الوقوف هنا، الساعة الآن التاسعة صباحاً نتناول إفطارنا والساعة التاسعة والنصف نغادر فلا تضيع الوقت، تناول إفطارك.

- حسنا يبدو اهتمامك بالوقت من محاسنك.

- صحيح سوف أعلمك أهمية الوقت كي لا تهدره.. هل انتهيت؟ اشرب كوب الشاي ودعنا نمضي.

- قبل أن نغادر فقط سؤال.

- امممم... هل أعجبك المكان وتريد إطالة المكوث هنا؟

- لقد لفت انتباهي أحد الأسماء التي أطلقتها على هذه المنطقة.

- وما هو ذلك الاسم الذي شد انتباهك له؟

- إنه «قبة العلم».. هل تذكرين لي بعضاً من العلماء الذين يُنسبون لهذا المكان؟

- اها... ولم لا؟ سأحل لك هذا التعجب وأخبرك عن بعض العلماء، ولكي تعرف أن هذا الاسم لم يأتِ من فراغ.. من علمائها في الحقبة السابقة أنس بن مالك، والحسن البصري، وسيبويه، والجاحظ، والحسن بن الهيثم، والفراهيدي.. هل يكفي أم أزيدك؟

- لا..لا.. يكفي بالفعل.. هناك الكثير من الأمور المشوقة التي أريد أن أتعرف عليها.

- الآن دعنا نمضي قبل أن يضيع الوقت ونحن جالسان هنا.. في الطريق سأخبرك بكل ما تريد معرفته.

- نعم.. نعم.. لنمضي.

- هل أخبرك بمعلومة ستدهشك حقاً؟

- قولي.. ما هي؟

- أنت الآن تقف في قعر الكرة الأرضية.. إذ تعتبر هذه المدينة أخفض منطقة على وجه الأرض.

- وهل تعتقدين لهذا السبب أنها تعد غنية بالبترول؟

- نعم بالفعل، إذ بلغ احتياطيها ٦٥ مليار برميل، وآخر

قطرة بترول في العالم ستخرج من هذه الأرض.

- ما شاء الله... على ما أذكر هي غنية بثروة أخرى إذ تنتج أجود أنواع التمور.

- صحيح ، كانت تحتوي على ٧٠ مليون نخلة في عام ١٩٥٦م، ولكنها قلت بشكل كبير بسبب ملوحة المياه والحروب المتوالية.

- كم تبلغ مساحتها يا سيدتي؟

- تبلغ مساحة مدينتي الجميلة ١٩٠٧٠ كم، وتعد ثاني أكبر محافظة من حيث عدد السكان، ويزينها شط العرب الناتج عن التقاء دجلة والفرات.

هل ترى المجسم الذي هناك؟

- أين؟

- هنا بهذا الاتجاه.. انظر يمينك.

- نعم رأيته الآن.. ماذا به؟ هل يرمز لشخصية علمية أم تاريخية أم كان من رجالات الدولة؟

- لا هذا ولا ذاك، انتظر قليلًا سأخبرك عنه لا تكن عجولاً.

- حسناً.. حسناً.. كلي آذان مصغية.

- يا أستاذنا العزيز هذا المجسم يرمز لشخصية الشاعر «بدر شاكر السياب» شاعر خلف إرثاً أدبياً لا يُستهان به.. عاش باحثاً عن الحب وعن صدراً يودعه قلبه ولكنه أخذته المنية ولم يتحقق له هذا الحلم.. عاش غريباً ومات غريباً حيث كانت آخر لحظاته في دولة الكويت الشقيقة.. ومن أشعاره هذه الأبيات :

فما كان غير التقاء الفؤادين ... في خفقة منهما عاتيـــــة
وما كان غير افترار الشفـــاه ... بما يشبه البسمة الحانية
وكان الهوى ثم كان اللقـــاء ... لقاء الحبيبين في ناحيـــة
فما قال : أهواك حتى ترامى ... عياء على ضفة الساقيــة

- كم هذه الكلمات جميلة مليئة بالمشاعر الجياشة من يسمعها تحرك أحاسيسه.. ليرحم الله الشاعر المحب.

- ما رأيك ألم أكن مرشدة سياحية متمكنة؟ لقد أطلعتك على الكثير من الأمور ولم نصل لوجهتنا بعد.

- نعم أسهبتِ بشكل كبير وكأنك موظفة جديدة أحبت إثبات جدارتها وتمكنها من أداء واجباتها... هل لي بسؤال؟

- نعم.. تفضل.. نحن بخدمتك أيها السائح العزيز.

- لَقَد تَنَاقَل لمسامعي أن لديكم ينتشر التفكك الاجتماعي والتنازع الطائفي والعشائري، ويبدو أن نسيجكم الاجتماعي على صفيح من نار.

- لقد وضعت يدك على جرح ينزف وتعفن بسبب من يتعمدون إحياءه.. ولكن لم يكن سابقاً.. هذا وليد مسخ نتج بعد عام ٢٠٠٣م قبل ذلك كنا ولا زلنا نسيجاً اجتماعياً متنوعاً من طوائف وديانات عِدَّة ولو أخذتَ نَظرة في المكان ستجد مسجداً سنياً على سبيل المثال جامع «الكواز» ومسجداً شيعياً مسجد «خطوة الإمام علي» وكنيسة «مارا فارم» ومعبد الصابئة المندائية ومعبد الأيزيديين.

كل هذا مزيج يكون المجتمع ولكن الحروب والمرتزقة من

هذا التفكك كانت لهم اليد في تقسيم البلاد والعباد ولم ينظروا للسلم الاجتماعي، أي بنظرتهم الحزبية لكسب الولاء والانتماء لهم وتوزيع خيرات المدينة بينهم.. لم يكن الناس جل همهم، ألا تظن أن حياة الديمقراطية غير المعتادة من قبل هي السبب؟ فقد عاش المجتمع قروناً تحت قوى الديكتاتورية لذلك يحتاج وقتاً كي يتخلص من هذه الرواسب السلبية فإن أي وجود للأحزاب التي تدافع عن حقوق الشعب لا الركض خلف مصالحها، صوت الشعب يجب أن يخدم مصالحه لا استخدامه واستغلاله لزيادة نفوذ رجاله.

الميزات في كل تجربة جديدة تحتاج وقتاً وصبراً لتصل لبر الأمان، ولكن لألفت انتباهك على صعيد الناس لا تجد هذه النفس الدخيلة عليهم، تجدهم متعايشين وفي حالات كثيرة بينهم نسب وصلة قرابة، هناك نظام اجتماعي وثقافي متنوع وقد يكون للمجتمع نظامان: نظام مدني ترعاه المؤسسات الحكومية، ونظام عشائري يخضع لقوانين وأعراف العشائر.

علينا أن نصبر ونستوعب الأخطاء وبتعاوننا وقوة صوتنا نوقف الفساد المستشري لابد أن ننظر بعين البصيرة ونزيح الستار المظلم الحاجب للنور هناك أشخاص ضحت بالغالي والنفيس ومنهم من نزفت دماء أهله في سبيل تحقيق السلام لهذا الشعب لذلك لا ننظر فقط للأشخاص الانتهازيين وصائدي الفرص ومن يصعدون على أكتاف الآخرين من الفاسدين هناك وجه مشرق من عالمنا يجب ألا ننساه.

- لندعو الله أن يسلم البلاد والعباد، وأن نتخطى هذه

المصاعب.

- نعم.. أنت محق، بلادنا تستحق منا الكثير.. الأوطان أهم أن تحتضن أبناءها مهما اختلفت ظروفهم والعناوين لا بديل عنها.. هناك عند ملتقى نهري دجلة والفرات حيث سنتوقف لنتناول وجبة الغداء وننعم بمشاهدة المنظر الخلاب سنجلس عند شجرة آدم.

- شجرة آدم؟

- نعم، لا تتعجب من الاسم سأخبرك عنها حينما نصل وتشاهد المكان بعينيك... وصلنا للمكان المقصود يمكنك النزول هنا بينما أذهب لأوقف السيارة.

- لا داعي سأذهب معك.

- كما تريد... «فارس» تعال من هنا.. هيا اصعد السلم، هل ترى جمال التقاء النهرين؟

- نعم.. منظر مدهش كأنهما برزخ لا يبغي أحدهما على الآخر، يوحيان بالتساوي والمشاركة إذ يلتقيان في مشترك واحد وتجمعهما منطقة واحدة، الطبيعة تعلمنا الكثير من الحكم ومن المؤشرات التي توحيها لمن له بصيرة في مخلوقات الله، وتمازج الألوان يضيف جمالاً على المنظر، وكأنه مكان يلتقي به الأحبة حيث تلتقي قلوبهم.

ماذا يا دكتور؟ أصبحت شاعرياً بتأثير جمال المنظر.

- ربما كذلك وربما أصف حالة تسكن بداخلي وكان لهذا المنظر الفضل بأن أفصح عنها.

- يبدو أن قلبك بدأ ينبض بمشاعر جياشة.

- دعنا نذهب عند الشجرة لأخبرك سرها وتكمل لي عما بداخلك.

- نعم وهو كذلك كما تريدين يا مرشدتي الشاطرة.

بدت الطبيعة تشاطرنا مشاعرنا التي اختبأت خلف صدورنا.

- إذا هيا لنذهب.

- انظر.. هذه هي الشجرة.

- هذه؟

- نعم.. هذه ألا تراها؟

- لا أجد غير أغصان متيبسة محاطة بسياج حديدي، ولا أعلم لماذا هذه الخيوط مربوطة عليها؟ يبدو لي من اسمها حكاية لابد أن تخبريني عنها.

- نعم سأخبرك.. أولاً دعنا نختر طاولة نجلس عليها لنرتاح ونتبادل الحديث.

- كما تريدين؟

- قبل أن نجلس أريد أن آخذ بعض اللقطات بالقرب من الشجرة وبالقرب من شط العرب كما تسمونه.

- وهو كذلك.. خذ ما تريد من الصور وبعدها نجلس هناك عند تلك الطاولة القريبة من النهر.

- ما رأيك أن نلتقط صوراً معاً وتكون الشجرة خلفنا؟

- امممممم.. معاً لماذا؟

- إن لم يكن لديك مانع للذكرى.. ذكرى زيارتنا هذا المكان.

- حسناً.. صورة واحدة فقط.

- لأبحث عن أحد المارة ليلتقط الصورة لنا.
- لو سمحت يا أخي.
- تفضل.. ماذا هناك؟
- هل يمكنك أن تأخذ لنا صورة بالقرب من الشجرة؟
- أين؟
- هنا.
- نعم.. حسناً بخدمتك يا أخي.
- أشكرك.
- أرجو أن تكون صورة جميلة... تفضل الكاميرا، أتمنى لكما حياة سعيدة تبدو أنت وخطيبتك منسجمين والحب مرسوم على ملامحكما.
- ماذا؟ هذا ما تراه حقاً؟
- أعتذر.. يبدو أنني تسببت لكما بالحرج.
- لا عليك.. شكرا لك على التقاطك الصورة لنا.
- العفو.. مع السلامة.
- مع السلامة.
- دكتور.. دعنا نذهب لنستريح.
- حسناً ولكن ماذا بك؟ هل أزعجك كلام الرجل؟ وجهك محمر.. هل هذا من الخجل أم من حرارة الشمس؟
- أرجوك.. لا تحرجني أكثر.. دعنا نذهب عند الطاولة التي سبق أن اخترنا الجلوس عندها لنستريح.
- الآن يا مرشدتي بعد أن جلسنا هل تخبرينني عن الشجرة.
- شجرة؟.. أي شجرة؟!.

- ما بك؟.. الشجرة..

- آه صحيح.. الشجرة.

- أين ذهب بك التفكير؟

- لا عليك شرد ذهني قليلاً.. أما عن تلك الشجرة، يسمونها «شجرة آدم»، حيث تشير الدراسات التاريخية إلى أنها من بقايا جنة عدن واشتهرت باسم «شجرة آدم المقدسة»، البعض يعتقد أنها شجرة الخلد التي أكل منها أبو البشر ويقدر عمرها بمئات السنين قبل الميلاد.. لذلك كثير من الناس يأتون لمشاهدة هذه الشجرة وبعضهم يعتقد أن لها مكانة مقدسة.

- آها.. الآن عرفت سر هذا الاسم الغريب.

- الآن أخبرتك بشكل موجز عن الشجرة. أخبرني عن أمرك؟

- أمر.. أي أمر تعنين؟

- الأمر الذي قلت إنه أسير صدرك... ها تكلم لماذا احمر وجهك وبدأت تتلعثم في الكلام.. إن لم ترد الكلام لا عليك انس الموضوع.. لا أريد أن اسبب لك الإحراج.. فقط قلت أسمعك إن كنت أقدر على مساعدتك.

- لا..لا.. سأخبرك وأرجو أن تتقبلي كلامي ولا يزعجك وتعديني قبلها أنه مهما قلت لا يؤثر على علاقتنا.

- تكلم.. جعلتني أضطرب.

- هل تعديني؟

- نعم أعدك... تفضل تكلم.

- «هاجر».. أحبك.

- ماذا؟

- دعيني أكمل كلامي.. لا تقاطعيني أرجوك.

- تفضل.

- أحببتك لأني وجدت فيك الصفات التي تجعل قربك حالة من التكامل معي.. بالأول ظننته مجرد إعجاب ووقت ويمضي، ولكن مع مرور الزمن وجدت أنني لا طاقة لي على بُعدك، أنتِ تملكين الشخصية التي تجعل من أي رجل يكون بقربك رجلاً ناجحاً وسعيداً.. ناضجة فكرياً، لا تأخذين الأمور بتعصب، قلبك طيب لا يلوثه الخبث.. ملتزمة بتعاليم دينك.. جوهرك ملائكي.. نظراتك خجلة.. حديثك المهذب.. وأما جمالك الظاهري سبحان خالقك الذي أحسن تصويرك، كل شيء فيك له معنى للجمال.. عيون تأسر الناظرين لها.. وقوام كالغزلان.. ابتسامة طفولية كالحرية في إحساسها وكأن اختيارك لهذا المكان كان مقدراً ولم يكن صدفة أبدا، المكان يصف ما أتمناه من أن يجتمع قلبي بقلبك، ويمتزج عمري بعمرك وأن يخلد حبي بقلبك... «هاجر».

- نعم.

- هل أزعجك نبض قلبي؟ أراك صامتة.. أم هذا صمت الرضا؟ وتفسيره ابتسامتك الساحرة ووجنتاك المحمرتان خجلاً؟ وهل تعرقك من حرارة كلامي، أم من تغير الطقس فبدأت قطرات العرق التي تتمرجح على جبينك تبشر بحرارة الجو؟ وكل ظني أن الحب حرارته جميلة تنعش القلب ويروي العروق المتيبسة، خذي يا سيدتي منديلي امسحي حبيبات تعرقك التي أفرزتها مشاعرك.. لا تغضي بطرفك عني هذه

اللحظات دعيني أقرأ صفحات الحب بعيني... هل أزعجك تصريحي بحبي لك؟ أرجو أن هذه الابتسامة التي رسمت على شفتيك تخبرني بما أتمنى.

- «فارس» أحرجتني.. وكلامك مفاجأة لي لم أتوقعها، أخرجني من عالمي جعلتني محلقة في سماء تغنت بعزفك.. لم أعرف مسبقاً أنك رومانسي.. وكلماتك عذبة يتذوقها القلب وتهيم المسامع بدفئها.. «فارس» أمسك بيدي وعاهدني ألا يشتت قلوبنا الزمان وألا يكسر قلبي بجانبك.. قل لي لن تفترق أنفاسنا مهما كانت التحديات.. قل لي إنني لن أندم إن قلت أحبك صادقة وأن اسمك بات نبضاً لقلبي.. لا تفلت يدي وإن طلبت منك ذلك، لا أخفيك كنت أتمنى ذلك لأني أحبك بالفعل، ولم أقدر أن أصرح لك بذلك قبل أن أتأكد من مشاعرك، والحمد لله لم يخب ظني فقد كنت تعيش نفس الإحساس ولم يكن حباً من طرف واحد .

- يا الله.. «هاجر» هل ما تقولينه حق، أم تجامليني؟

- وهل في الحب مجاملة يا «فارس»؟

- أكيد.. لا.

- كم أنا سعيد بسماع ذلك.. كنت أخشى أن تجامليني وتقطعي علاقتك بي.. ما رأيك أن ننقش تاريخ إعلاننا عن حبنا على جذع الشجرة ليخلد هذا التاريخ مع الشجرة؟

- أحبك «فارس».

دروس الحياة قاسية
لكنها خير معلم
أجاد إيصال الدرس

(١٠)

عقد القلوب

الكلمات ماهي إلا حروف مكبلة على سطور الورق حتى يحررها قارئ يتخذ منها مبدأ ورسالة يطبقها في حياته، وهذا هو الحال بالنسبة لنا لابد أن نتخذ مما حل بنا إشارة للتغيير وأن نطبق ما أخذناه شعاراً لنا وننشره بين الناس.

الدين.. الحب.. التسامح.. الإنسانية.. عناصر تشكل جذور وحقيقة الحياة والتعايش بين الناس.

كان لقاء «فارس» بأبي كيوم ولادتي، فقد عادت الحياة لقلبي بعد أن كادت تُسلب مني، كان لقاء للتعارف والأمور تمضي بشكل طبيعي، حيث أبي بعد هذا اللقاء أخذ انطباعاً جيداً عن فارس وبارك هذا الحب.

حددنا يوم الجمعة بعد صلاة العصر يأتي «فارس» وتكون خطبة رسمية يتواجد الأهل من الأعمام و الأخوال.

كان المنزل تزينه الإنارة المنسدلة على جدرانه وأزهار الجوري باللونين الأبيض والأحمر التي حملتها استاندات كبيرة موزعة في مدخل البيت بشكل جميل وكأنها اختيرت عن قصد.. الورد الأحمر كان يهدف للحب، والأبيض للصفاء والوفاء.. كانت كل التفاصيل تفسر حجم الحب الذي اجتمع الأهل هذا اليوم لمباركته، وطفلتان لبستا فساتين الفرح ممسكتين بالمباخر لاستقبال الضيوف بالعود والبخور.

كنت أترقب وصوله وكل دقيقة أنظر من نافذة غرفتي كنت على أهبة الاستعداد وبكامل زينتي.. كنت أرتدي ثوباً

أخضر فستقياً يبرز القوام.. وبَدَوْتُ مخصرة كالنحت.. تزين الفستان قطع الإكسسوار التي امتدت من على الكتف اليمنى الى الخاصرة وكونت شكلاً بدا كالوردة.

وسادلة شعري على كتفي يزينه تاج ذهبي بسيط بشكل أوراق الشجر المترابطة ومتزينة بمكياج ناعم كما يحبه «فارس» فقد عرفت ما يجذبه من خلال تعرفي على ما يحب وما يكره خلال اتصالاتنا المطولة كل ليلة.

جاء «فارس» وبكل خطوة من خطواته تقرع طبول نبضاتي فرحاً كانت أول المحتفلين...

«فارس» اسم على مسمى.. متوسط القامة، ملامحه ناعمة، عيناه عذبتان قلبه يطفح بالتسامح والرقة والعذوبة، على الموعد المحدد وهو بالزي الخليجي الجميل وقد كان مستعداً بشكل مبهر، ذقنه المرسوم بالطريقة التي أحبها عطره يأسر وتشع منه رائحة العود.

كان يوماً جميلاً عمه الفرح، وزغردت خالاتي ودموع الفرح التي تسللت من عين أمي، تراقص إخواني وأخواتي على أنغام الأغاني العراقية.. لبسنا الخواتم وقد كنت اخترت لـ«فارس» خاتماً غير معتاد بحجر فيروز صافٍ ومزين بأحجار من الكريستال اللماع، وألبسني «فارس» دبلة ألماس ناعمة، بعد أن غادر الجميع كانت لنا الفرصة أن نكون وحدنا.. وكانت ردة فعلنا قبل كلماتنا ضممنا بعضنا بحرارة وكانت قبلة الحياة آخر كلمة أوصلتها قلوبنا معبرة عن الحب الذي بداخلها.. أراد

أن يروي جفاف البعد الذي سببته الظروف.

حددنا موعد الزواج في الرابع من تموز لكن هناك من أراد أن يحرمنا من فرحتنا ويقطع زهرة قلبنا أشلاء وينثرها على قبورنا، عذراً دموعي تتسرب على خدي كلما تذكرت ما حصل، فلم أعش بعد هذه الأحدث بسلام ولأن زواجي خالف بعض الأعراف المعتادة ولم يتقبله البعض وكأن لهم الوصاية على حياتي ولابد أن نتنازل عن قرارتنا لأجل إرضاء عنجهية البعض.

في اليوم المحدد للزواج وفي الساعة الرابعة عصراً أول خطوة من أقدام «فارس» خارج السيارة التي زفته لبيتنا مع أحد الأصدقاء، ابتسامته التي رسمت الجمال على الحياة كالصقر يزينه وشاحه العربي والعباءة العربية رمادية اللون المزينة بتطريزات ذهبية سادلاً غترته البيضاء على صدره، عريس لم تحمل خطواته الأرض قبل أن يصل حبيبي ومن اختاره قلبي زوجاً أرتبط به العمر كله...

قبل أن يحضنه أبي مرحباً به ومهنئاً له لزواجه سبقته دماء صبغت جدار بيتنا مما شل البهجة وخطفها من أعيننا، رصاصة كانت تتسابق مع خطواته من أحد أبناء العم معترضاً على هذا الزواج...

يا الله... يا الله... كم كانت هذه اللحظات مميتة، أن ينقلب الفرح إلى حزن مما جعلت الصدمة وهول الموقف ومنظر الدماء والجثة الممددة، جعلت من الفرح ينقلب إلى حزن وبكاء ونحيب، رفعت الجثة بعد أن حضرت سيارة الإسعاف.

لا تحاولوا اكتشاف أموراً
إن تُبدَ لكم تسؤكم

(١١)

رصاصة طائشة

متى كان صوت طلقات الكراهية يجعل دولاب الحياة يدور؟!! الحقد يقتل صاحبه قبل أن يتسبب في هدر دماء قلوب جمعها الحب، الكراهية سم يسري في الشرايين حتى يصيب القلب بسكتة توقفه عن النبض بذلك يعطل الحياة ويشوه جمالها...

حاول أحد الحضور إيقاف النزيف الذي سببته الرصاصة في صدر الفرحة التي مزقها الجهل والتعصب، ضغط بكلتا يديه على الجرح ليوقف أو يخفف من النزيف حتى وصول الإسعاف.. أغمى عليه.. مدد رجليه.. أسبل يديه.. أغمض عينيه.

إحدى النساء لم تتحمل المنظر.. أخذت بالتراب ترميه على رأسها وتلطم وجهها، الكل في حالة ذهول في صدمة ونكران لحقيقة الحدث صرخ أخي:

- لماذا؟... لماذا يا قاتل؟... لماذا ألبستنا السواد؟... لماذا أخذت فرحتنا؟... لماذا هدرت الدماء على عتبة بيتنا؟... هل أردت أن تثبت حقارتك؟... الدم يتبعه دم ولا يتوقف هذا الجهل، أي شرع يسمح لكم بهدر الدم بحجة العشيرة والقبلية، وابن العم أحق؟ أنت مجرد نكرة تستخدم تعصبك لسلب حق الآخرين في حياتهم.. يا رب أنقذ هذا المسكين قبل أن يلفظ أنفاسه لا ذنب له غير أنه آمن بالحب.

أمي منعتني من الخروج، الصراخ والهلع لم يجعلني قادرة على الوقوف.. تجمدت أطرافي أتوسل لأمي أن تترك يدي، دعيني أخرج دعيني، غسلت الدموع زينتي، ومكياجي أصبح ألواناً مختلطه بالسواد لون وجهي، وقفت عند الباب انهرت من منظر الدماء أُغمى عليَّ وحملتني أمي وعمتي لداخل البيت، جلسنا ننتظر أحداً يوصل لنا خبراً يطمئن قلوبنا.

ذهب للمستشفى أبي وأخي وخالي، وجوهنا المبتسمة أصبحت شاحبة، لم نقدر على الكلام.. عَمَّ الصمت والكل يصد عن الأخر بنظره.

كانت أمي جالسة قربي ورأسي على صدرها تخاف أن تصل أخباراً سيئة قد تكون صادمة ولا أتحملها، كانت لحظات عصيبة على الكل.. قتلوا فرحتي.

مضت أربع ساعات ولم يصل خبر، وكل اتصالاتنا باءت بالفشل، لا أحد يجيب...

بعد مضي ساعات من الانتظار جاء اتصال من أبي يخبرنا أن من وقع ومن أصابته الرصاصة كان صديق «فارس» وصاحبه الآن في العناية المركزة، وان شاء الله سوف يقوم بالسلامة ترافقه عناية الله.

لا تطرق أبواب السوء..
فلن يجيبك غير الهوان والمذلة

(١٢)

لقاء بعد طول الانتظار

هناك أنباء وتطورات يجب أن أخبر «كاترين» بها، لابد أن أجد طريقة كي ألتقيها.. آه يا «كاترين» هل أنتِ بخير؟، أيام طويلة مضت لم أتواصل معها هل أتصل بها؟ أم أذهب لمركز التطوع الذي تعمل به؟ لابد أن أتصل عليها الآن لا قدرة لدي للصبر حتى الغد.

- آلو.. آلو.. «كاترين».

- أهلا «محمد».. كيف حالك؟

- معذرة «كاترين» منذ أيام لم أتصل بك وها أنا اتصل في هذه الساعة المتأخرة.. أرجو المعذرة.

- لا عليك «محمد» أسعدني اتصالك... ولكن طمني هل الأمور بخير؟ لم أعتد منك الاتصال في هذا الوقت.

- الأمور بخير «كاترين» أردت فقط أن أقول لك.. هل يمكنني أن ألتقيك غداً؟

- «محمد» هل أخي بخير؟ منذ خمسة أيام أحاول الاتصال به ولا يجيب على اتصالاتي أو يكون جهازه مغلقاً أخافني اتصالك في هذا الوقت وطلبك أن تلتقيني وأخي غائب طمني أرجوك هل الأمور بخير؟... أخي هل حصل له ما يخيف؟... هل تعرض لإصابة، أم قتل؟... هل وقع تحت الأسر؟

- اهدئي أرجوك «كاترين» اهدئي... لماذا هذا الكم الهائل من الأسئلة؟... لا تجزعي أخوك بخير إن شاء الله فقط أردت أن أدعوك غداً على العشاء وفرصة لتتعرفي على أختي فقد

وصلت اليوم.. هذا كل ما في الأمر.

- آسفة «محمد» لم أقدر أن أتمالك نفسي.

- لا عليك فقد كنتِ كالقطار السريع تعطلت فراملة.

- إذاً هكذا وجدتني؟ ... معك حق.

- ماذا الآن؟ هل تقبلين دعوتي؟

- أكيد يسرني ذلك.. وكم أنا متشوقة لرؤية أختك وتقديم الشكر لها على كرم الضيافة.

- سوف أكون في مركز الطبابة المخصص للنازحين بالعادة أبقى لوقت متأخر، ولكن يمكنك غداً أن تأتي الساعة الرابعة عصراً.. سوف أكون بانتظارك هناك.

- حسنا.. لن أتأخر سأكون هناك في الوقت المحدد.

- الآن أستأذنك وأكرر اعتذاري ثانية لما سببه اتصالي من هلع لك.. مع السلامة.. تصبحين على خير.

- مع السلامة «محمد».. تصبح على خير.

- أختي أنا ذاهب لاصطحاب «كاترين».. هل كل شيء جاهز، أم هناك ما تحتاجين إليه آتي به وأنا قادم؟

- كل شيء على ما يرام ليس هناك ما ينقصنا، جهزنا الحلويات.. والعشاء سوف يكون سمك مسقوف كل ما يجعلك مسروراً لاستقبال الضيفة جاهز.

- أشكرك أختي.. يعطيك العافية.

******

- أهلاً وسهلاً أخت «كاترين».. كم أنا سعيدة برؤيتك شوقني أخي لرؤيتك بكثرة حديثه عنك.. يكاد لا يجلس معنا إلا يأتي بذكرك.. لا تخجلي تفضلي.. احمرار خديك فضحك.

- أنا أسعد من أي شخص اليوم.. كانت أمنيتي رؤيتك والحديث معك أنتِ إنسانة عظيمة.

- لماذا هذا المدح؟ لا أستحقه.. ماذا تعرفين عني يستحق أن أكون بهذه المكانة؟

- أنت تستحقين أكثر من ذلك، ويزيد على صفاء قلبك هذا التواضع.

- يبدو بداخلك أسرار وحديث يطول.. ما رأيك أن نؤجله إلى ما بعد العشاء حتى لا يبرد الطعام ونبيت جوعى...

- حسناً.

******

- الحمد لله العشاء طيب ..تسلم الأيادي.

- بالعافية عليك، أقل مما تستحقين.

- لا سمح الله لم تقصروا، أكثر الله خيركما وبارك الله في أرزاقكما.

- تفضلي عزيزتي بعد أن تغسلي يديك إلى المجلس لنشرب قهوتنا وقد جهزت لك بعض الحلويات.

من هنا.. تفضلي اجلسي هنا.. هل هذه الكنبة مريحه لك؟

- نعم.. شكراً، لا تتعبي نفسك دعيني أخدم نفسي، أنا

بينكم لا أحسب نفسي غريبة.

- أنتِ كذلك إذاً خذي راحتك... و الآن ألا تخبريني عن سر كلماتك التي وجهتها لي؟

- بالتأكيد أخبرك ولكن قبل ذلك هل تعذرينني وتغفرين لي سوء تصرفي؟

- ماذا حدث؟؟ ولماذا أغفر لك وأنا حديثة المعرفة بك هذا أول يوم ألتقيك. أرجوك لا تجعليني أتوتر أخبريني.

- حسناً..حسناً.. امممم.

- تحدثي لا عليك.

- أنا يا «هاجر» تعرفت عليك من مذكراتك التي سمحت لنفسي أن آخذها من مكتبك وشدني تطفلي أن أعرف الأحداث التي مررت بها.. وأدهشني هذا الحب الذي يحمله قلبك.. فقد جسدت الحب مشاعراً وسلوكاً وبذلك أصبحت مثلاً للحب الطاهر العذري لقد بعثتِ بداخلي الأمل وجعلتِ قلبي ينبض بالفرح من جديد ومنك تعلمت أن الحب حقيقة لابد أن نعيشها.

أعتذر منك لأني تطفلت على خصوصياتك وبارك الله بهدية السماء «فارس» الذي كان حباً صادقاً لم يكن حب شهوة أو نزوة تحدى كل ما يجعله يرحل ويجعل حبه خلفه وتمسك بك.

- لا عليك.. ليس فيها من أسرار أخفيها، «فارس» أصبح زوجي.. أسأل الله أن يرزقك شخصاً ك «فارس» يحبك ويعوضك عما واجهتِ من مصاعب.

- نحن هنا..

- «محمد» ما بك؟ هل كنت تصغي لحديثنا.

- لا بالتأكيد... الآن أتيت كنت أجري مكالمة.. ما هذا الحديث المهم الذي جعلكما لم تلاحظا وجودي من غيابي؟

- حديث خاص بالنساء يا أخي.

- حسناً جداً يا سيدَتَيَّ الجميلتين.. يبدوا أنكما أصبحتما صديقتين ولا تحتاجاني بينكما.. أراكما منسجمتين ونسيتما أنني متواجد معكما.

- عفوا «محمد» بالفعل تشوقي لرؤية «هاجر» وتبادل الحديث الممتع معها شغلني عنك.

- لا عليك كنت فقط أمازحكما وألفت انتباهكما لوجودي.. بالمناسبة «كاترين» قبل أن أنسى الخبر الذي اتصلت بك لأجله أريد أن أخبرك أنه بحمد الله تم تحرير أراضيكم من المعتدين ودحرهم.. لنتذكر هذا العام ٢٠١٥م كان عام انتِصار الحق على الباطل.

- الحمد لله.. الحمد لله ..هذا خبر يستحق الاحتفال.

- ولماذا لم تُرد أن تخبرني بمثل هذا الخبر السار على الهاتف؟ أم هناك أمراً آخر؟

- أمممم.. أردتك أن تلتقي أختي ونتشارك الفرحة.. هذا كل ما في الأمر؟

- «محمد» قل ماذا هناك؟ ملامحك تدل أن هناك ما تخفيه عني.. هل الأمر متعلق بأخي؟

- «كاترين» أخوك بخير.. قد تعرض قبل أيام لإصابة في

كتفه.. والآن حالته مستقرة وهو في تحسن ملحوظ.

- «محمد» هل ما تقوله صحيح، أم تريد أن تخفف عليَّ هول المصاب؟

- لا يا «كاترين» كل ما قلته صحيح ولم أخفِ عليكِ شيئاً.

- إذاً متى يمكنني رؤيته والاطمئنان عليه؟

- في أقرب وقت.. أخبريني.. بعد خبر التحرير ماذا سوف تقررين؟ تبقين هنا معنا أم ترجعين لديارك؟

- لكل منا رسالة عاش كي يوصلها بطريقة ما، أنت «محمد» علمتني أن الدين حق وأنه لا يتغير مهما لوثه شياطين الإنس، وكل ما وجدته منك ومن الشباب الذين معك يمثل هذا الدين الحق.

لقد عرفت رسالتي التي سوف آخذها معي لدياري وأكرس جل عمري لأجل نشرها بين الناس.. أن الحياة ترتكز على الدين والحب و الإنسانية، وأن الشر الذي وقع علينا لسنا الوحيدين الذين نعاني هذا الألم، ولكننا لا نشعر بغير ما يقع علينا هناك الكثير من المعاناة في هذا العالم مترامي الأطراف...

- ليس أنتِ يا «كاترين» المعنية بهذه الظلامة بل هذا الشر متسع الآفاق ورا ياته الشيطانية من الشرق إلى الغرب منتصبة بشعارات كاذبة مضللة لذلك من رحم معاناتك يجب أن تنتصري لنفسك وللآخرين بنشر الحقيقة لأجل الإنسانية لا لأجل أن ننتصر لأنفسنا فقط.. بل لنفضح الباطل والضلال.

أنتِ تجسدين حقيقة التسامح لأجل الإنسانية كما جسدت «هاجر» الحب لأجل الحقيقة، و «محمد» ورفاقه

أثبتوا بفعلهم ونصرتهم للمظلوم الدين الحق الذي يصنع السلام والأمان وإغاثة الملهوف.. أنتم الشمس التي لابد أن تشرق لتبدد ظلام الباطل والقتل على الهوية والنهب باسم الدين والكره لاختلاف العرق والنسب.

- إذاً عزمتِ على الرحيل وأن تفارقينا؟

- هناك الكثير من المهجرين يمسكون بمفاتيح منازلهم منتظرين العودة رافضين فكرة الاستيطان والوطن البديل، سوف أذهب لأزرع الحب والتسامح.. ونُعمر قرانا من جديد.. أما أنتم فلا قدرة لي على فراقكم أو نسيانكم سوف أكون على اتصال دائم بكم، وإن سنحت لي الفرصة سوف آتي لزيارتكم.

تمـــت

ماســـتر ©